العدول عن مقتضى الظاهر
عند الإمام الطيبي
في كتابه الكاشف عن حقائق السنن

إعداد الدكتور

أحمد سعد سعد جاويش

دكتوراه في البلاغة والنقد

من كلية اللغة العربية – بالقاهرة

جامعة الأزهر

العدول عن مقتضى الظاهر عند الإمام الطيبي
في كتابه الكاشف عن حقائق السنن

أحمد سعد سعد جاويش
دكتوراه من قسم البلاغة والنقد . كلية اللغة العربية بالقاهرة . جامعة الأزهر .
البريد الإلكتروني : AhmadGawish1 @ yahoo. Com

ملخص البحث :

يجمع نماذج تطبيقية على سبعة من أساليب العدول عن مقتضى الظاهر في طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة كما تناولها وبيَّنها الإمام شرف الدين الطيبي في كتابه الكاشف عن حقائق السنن (شرح مشكاة المصابيح) ، وهذه الأساليب هي الالتفات . وضع المضمر موضع المظهر . وضع المظهر موضع المضمر . وضع الماضي موضع المضارع . وضع المستقبل موضع الماضي . التغليب . القلب .

وقد تعرَّض البحث لآراء العلماء فيما تعددت فيه وجهات نظرهم من هذه الأساليب على مر العصور مع ملاحظة المصطلحات التي أطلقت عليها فاختلفت في بعضها إطلاق المتأخرين عن المتقدمين ، ومن النتائج المتوصل إليها : أن الخصائص الفنية لتلك الأساليب لم تتغير بتغير الأسماء والمصطلحات ، وأن تحليل النماذج العالية من الكلام البليغ ينمي الذائقة البلاغية لدى الدارسين والباحثين ، وأنه لا يمكن تذوق الأسلوب البلاغيَ إلا بملاحظة ما يحيط به من جو النص ، ومراعاة الوشائج التي تربطه بالمقام والسياق.

الكلمات المفتاحية: العدول عن مقتضى الظاهر، الالتفات ، المظهر ، المضمر، المستقبل .

In the name of Allah, Most Gracious, Most Merciful

The Ecart of Necessity of the Apparent of Imam al-Tibi in his Book "Al-Kashef an Haqaek Al-Sunan"

Ahmed Saad Saad Gawish

Department of Rhetoric and Literary Criticism - Faculty of Arabic Language Cairo - Al-Azhar University, Cairo.

Email: AhmadGawish1 @ yahoo. Com

Abstract:

Collects applied models on seven methods of ecarting of necessity of the apparent from the apparent in a range of honorable prophetic Hadiths as dealt with and explained by Imam Sharaf al-Din al-Tibi in his book "Al-Kashef an Haqaek Al-Sunan" (Mishkat al-Masabih). These methods are Enallage (Iltifat) - putting the implicit in the place of apparent.The research dealt with the opinions of scholars regarding their views on these methods throughout the ages, noting the terminology that was used for them, and some of them differed in the terminology of the latecomers from the early ones.Among the results reached: that the technical characteristics of these methods did not change with the change of names and terminology, that analyzing high models of Rhetorical Speech develops the Rhetorical Appreciation of scholars and researchers, and that rhetorical style can only be appreciated by observing the surrounding environment, and taking into account the bonds that link it to the context.

Keywords: The Ecart of Necessity of the Apparent , Enallage (Iltifat) , the Apparent , Implicit , the Receiver.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين. سيدنا محمد النبي الأمي الأمين. وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد...

فإن ما صدر عن مشكاة النبوة من فصوص الحكم ولآلئ البيان لم يزل محل عناية البلاغيين، ومحطّ رحال الباحثين والدارسين، لأنه في طبقة عالية من بليغ الكلام، وقد عنِي العلماء منذ قرون طويلة بالكشف عن خبيء ذلك البيان النبوي، واستخراج درره مَن أصدافها، ليطلعوا الناس على باطن نفائسها، كما أدهش عقولهم الظاهر من قلائدها، ولا غرو فقد صدرت عن أفصح من نطق بالضاد الذي أوتي جوامع الكلم صلى الله عليه وسلم.

وكان من أبرز من عني بهذه المهمة الجليلة من علماء القرن الثامن الهجري الإمام شرف الدين الطيبي (ت ٧٤٣ هـ) رحمه الله فقد كانت له عناية بعلوم العربية لا سيما ما يتعلق منها بالمعاني والبيان والبديع، وقد صنف كتاباً خاصاً في العلوم الثلاثة هو المعروف بكتاب "التبيان في البيان".

وقد لاحظت في كتابه الكاشف عن حقائق السنن الذي شرح به كتاب مشكاة المصابيح عناية خاصة باستخراج بلاغة الحديث النبوي الشريف، ولذا وجَّهني الله عز وجل إلى الإفادة منه والبحث فيه لعلي أستفيد وأفيد إخواني الباحثين والدارسين في هذا المجال.

وقد سبق – بفضل الله عز وجل – بحث كنت قدَّمته إلى حولية كلية اللغة العربية العدد الخاص بعام ٢٠١٦م، كان بعنوان "أسلوب الحكيم عند الإمام الطيبي في كتابه الكاشف عن حقائق السنن"، ووددت لو وفقني الله عز وجل إلى دراسة متممة لذلك البحث حول أساليب الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، حتى جاء الوقت الذي شرح الله تعالى فيه صدري لدراسة تلك الأساليب في ذلك الكتاب الجليل، فجمعت – بعون الله – نصوصاً منه لأبرزها فكان أن وقفت فيما جمعته على سبعة

أساليب منها كما سيأتي – بحول الله – في التمهيد فإن كنت قد وُفّقت فيها للصواب فذلك بفضل الله وبرحمته، وإن كانت الأخرى فحسبي أني بذلت قصَارى جهدي الذي أسأل الله عز وجل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به ويتقبل منا إنه هو السميع العليم.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين

العدول عن مقتضى الظاهر وفائدته
عند البلاغيين

المراد بالظاهر في قولهم "الكلام على خلاف مقتضى الظاهر"، أو كما عبَّر عنه صاحب المفتاح بقوله "إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر"[(١)]: هو ظاهر الحال، وهو أخص من "الحال" المستعمل في اصطلاحهم "مقتضى الحال"، فيكون مقتضى ظاهر الحال أخصَّ من مقتضى الحال، لأنه قد يخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ويكون مطابقاً لمقتضى الحال[(٢)]. والحال في اصطلاحهم: هو الأمر الداعي لإيراد الكلام على صورة مخصوصة.

فإن كان المقتضي لهذه الصورة أو الكيفية المخصوصة من التركيب هو ظاهر حال المخاطب أو السامع فإن كان المقتضي لهذه الصوة أو الكيفية المخصوصة من التركيب هو ظاهر حال المخاطب أو السامع كأن يكون منكراً لخيرٍ معين، فأؤكد له ذلك الخبر بأكثر من مؤكد؛ فحينئذ أكون قد أخرجت له كلامي مطابقاً لمقتضى الظاهر، لأن إنكاره هو الثابت في الواقع ظاهراً، فإذا عدلت عن هذه الكيفية المخصوصة في التركيب حينئذ بجعل الخبر خالياً من التوكيد أكون قد عدلت عن مقتضى الظاهر. وبعبارة أخرى إن كان المقتضي للصورة المخصوصة من التركيب هو غير ظاهر حال المخاطب أو السامع كأن ينزِل المنكر منزلةَ غير المنكر مثلاً، فيوجَّه إليه الخبر من غير مؤكدات، كما في قوله تعالى – على اعتبار كونه خطاباً للمشركين - : (**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**)[(٣)]، فعندئذ يكون الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وهو في الوقت نفسه مطابق لمقتضى الحال، لأن أمام المنكر من الأدلة

(١) مفتاح العلوم للسكاكي: (٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٤٣٥ – بتحقيق د. عبد الحميد هنداوي – دارالكتب العلمية ٢٠٠٠).
(٢) ينظر: المطول للتفتازاني: (١٢٧ ط المكتبة الأزهرية للتراث)، وتعليق الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي على الإيضاح: (٨١/٢).
(٣) سورة البقرة: ١٦٣.

والشواهد ما إن تأمَّله لارتدع عن إنكاره[١].

وقد أشاد العلماء بالقيمة البلاغية لفن الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، ومنهم أبو يعقوب السكاكي، فقد تحدث عن ذلك في غير موضع من المفتاح، فيقول عقب حديثه عن أضرب الخبر: "ثم إنك ترى المفلقين السحرة في هذا الفن ينفثون الكلام لا على مقتضى الظاهر كثيراً.. لاعتبارات خطابية"[٢].

ويقول في موضع آخر: "وهذا النوع – أعنى نفث الكلام لا على مقتضى الظاهر – متى وقع عند النظّار موقعه استهشَّ الأنفس، وآنق الأسماع، وهزَّ القرائح، ونشّط الأذهان، ولأمرٍ ما تجد أرباب البلاغة وفرسان الطراد في ميدانها الرامية في حدق البيان يستكثرون من هذا الفن في محاوراتهم..."[٣].

وينوِه إجمالاً في موضع آخر بأساليب الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وعراقتها في فنون البلاغة فيقول: "ولهذا النوع – أعني إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر – أساليب متفننة، إذ ما من مقتضى كلام ظاهري إلا ولهذا النوع مدخل فيه بجهة من جهات البلاغة على ما ننبه على ذلك منذ اعتنينا بشأن هذه الصناعة، ونرشد إليه تارة بالتصريح، وتارات بالفحوى، ولكلٍ من تلك الأساليب عرقٌ في البلاغة يتسرب من أفانين سحرها.."[٤].

ولقد تناول السكاكي بعض هذه الأساليب وبيَّن أثرها في نفس السامع، وذلك ضمن باب الإسناد الخبري، وتبعه الخطيب القزويني، فعدَّا من ذلك: تنزيل العالم بفائدة الخبر ويلازمها منزلة خالي الذهن، وتنزيل غير السائل منزلة السائل، وتنزيل غير المنكر منزلة المنكر، وتنزيل المنكر منزلة غير المنكر. وتبعهما في ذلك شرَّاح

(١) ينظر: الإيضاح للخطيب القزويني (٧٥/١ تحقيق أ.د. محمد عبدالمنعم الخفاجي)، والمطول: (٥٠).
(٢) المفتاح: (٢٥٩).
(٣) المفتاح: (٢٦٣).
(٤) المفتاح: (٤٣٥).

التلخيص[1].

ثم إننا نجد طائفة أخرى من هذه الأساليب يتطرق البلاغيون إلى الحديث عنها وعما فيها من اللطائف والنكات في آخر باب المسند إليه عند الكلام على خروج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر، فيعد صاحب المفتاح من ذلك: وضع المظهر موضع المضمر، وعكسه وهو وضع المضمر موضع المظهر، والالتفات، ويعد منها في موضع آخر الأسلوب الحكيم[2].

ومنها أسلوب القلب الذي تكلم عليه السكاكي في الباب الخاص بتفصيل اعتبارات المسند – كما عنونه – وذلك عقب حديثه عن الحالة المقتضية لكونه منكراً[3] . وسنذكر طرفاً من كلامه إن شاء الله تعالى عند تناول هذا الأسلوب في بحثنا هذا، ونبين عندئذ أنه يختلف عن أسلوب القلب المذكور في علم البديع ضمن المحسنات اللفظية.

وأما استعمال الماضي موضع المضارع وعكسه – أي استعمال المضارع موضع الماضي– وهما من الكلام لا على مقتضى الظاهر أيضاً – فقد جاءا في المفتاح ضمن ما جاء من المسائل تحت عنوان "تقييد الفعل"، فعرض للأسلوبين أثناء كلامه على الحالات المقتضية لتقييد الفعل بالشروط المختلفة[4] وسنذكر بعون الله تعالى نبذاً من كلامه أيضاً عند تناول كل من الأسلوبين.

وما جاء متفرقاً من هذه الأساليب في المفتاح فإن الخطيب القزويني رحمه الله جمعه في محل واحد، فقد تكلم عليها في آخر الباب الذي عقده لأحوال المسند إليه في كل من التلخيص والإيضاح، فقد قال بعد ذكر كثير من هذه الأحوال: "هذا كله

(١) ينظر: المفتاح: (٢٥٩ – ٢٦٣)، والإيضاح: (٧٢/١ – ٧٥)، وشروح التلخيص: (١٩٩/١ – ٢١٨).
(٢) المفتاح: (٤٣٥ ، ٤٣٦).
(٣) المفتاح: (٣١١ ، ٣١٢).
(٤) المفتاح: (٣٤٦ ، ٣٤٧، ٣٥٤ ، ٣٥٥).

مقتضى الظاهر، وقد يخرج الكلام على خلافه.."[١] ثم تناول هذه الأساليب بالتفصيل، وتبعه في ذلك شرَّاح التلخيص، وفي مقدمتهم العلاّمة سعد الدين التفتازاني[٢].

وأما الإمام الطيبي في كتابه "التبيان في البيان" فقد تناول بعض هذه الأساليب في فنون البديع؛ على نحو ما فعل في الالتفات الذي جعله ضمن المحسنات المعنوية، وكذا الأسلوب الحكيم[٣]، وتطرَّق للبعض الآخر من أساليب الكلام على خلاف مقتضى الظاهر في مباحث متفرقة من علم المعاني على نحو ما نرى في كلامه على وضع المضمر موضع المظهر وعكسه ضمن باب المسند إليه، وكلامه على وضع الماضي موضع المضارع وعكسه ضمن باب المسند[٤] حديثه عنها لا يكاد يخالف رأي جمهور البلاغيين كما سيتضح إن شاء الله.

وقد سبق التعريف بالإمام الطيبي وذكر نبذة عن حياته العلمية ومصنفاته في بحثنا السابق " أسلوب الحكيم عند الإمام الطيبي في كتابه الكاشف عن حقائق السنن" والذي نشر في مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة (العدد الرابع والثلاثين)، وأسلوب الحكيم هو ضرب من العدول عن مقتضى الظاهر، فالبحثان دائران في مجال مخالفة مقتضى الظاهر، وهي نطاق جامع بينهما ، ولذا اكتفيت بما سبق من ترجمة العلامة شرف الدين الطيبي في البحث الأول عن إعادتها ههنا لئلا تطول هذه الأطروحة جدا.

وسنلقي الضوء – بإذن الله تعالى – في هذا البحث التطبيقي – على سبعة من الأساليب عند الطيبي في شرحه على المشكاة، وهي:

(١) تلخيص المفتاح: (ص ٣٢ – بتحقيق د. عبد الحميد هنداوي – في مقدمة كتاب الأطول)، والإيضاح: (٨١/٢).
(٢) شروح التلخيص: (٤٤٨/١ – ٤٩١)، والمطول: (١٢٧ – ١٣٩)..
(٣) التبيان في البيان لشرف الدين الطيبي: (٤٢١ ، ٤٣٠ – بتحقيق أ.د. عبد الستار زموط).
(٤) السابق: (٢٣٥ – ٢٣٧ ، ٢٧٢ – ٢٧٤).

١ – الالتفات. ٢ – وضع المضمر موضع المظهر. ٣ – وضع المظهر موضع المضمر. ٤ – وضع الماضي موضع المضارع. ٥ – وضع المضارع موضع الماضي. ٦ – التغليب. ٧ – القلب.

أولاً : الالتفات

حقيقته ومفهومه عند البلاغيين وأثره في الكلام

الالْتِفَاتُ في اللغة: مصدر الْتَفَتَ يلتَفتُ الْتِفَاتاً. يقال لَفَتَ وجْهَه عن القوم: صرفه. والْتَفتَ الْتِفاتاً. وتلَفَّت إلى الشيءِ والتَفت إليه: صرف وجهه إليه. قال الشاعر:

فَلمَّا أعادَتْ من بعيد بِنَظْرَةٍ إلَيَّ الْتِفَاتاً أَسلَمتها المحاجر[١]

ولما كان هذا الفن عند البلاغيين يتضمن انتقالاً من أسلوب إلى أسلوب، كالانتقال من الخطاب إلى الغيبة، أو من التكلم إلى الخطاب مثلاً، ناسب أن يسمَّى التفاتاً أخذاً من التفات الإنسان بوجهه يمنةً ويسرة، ومن ثَمَّ قال ابن الأثير: "وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقْبِل بوجهه تارةً كذا، وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة، لأنه ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة.."[٢].

وقد تحدث عنه جار الله الزمخشري أثناء تفسيره لفاتحة الكتاب العزيز مبيناً فائدته في الكلام وأثره على السامع، حيث يقول:

"الالتفات في علم البيان[٣] قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم... وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد"[٤].

وممن أشاد بهذا الفن وأثنى عليه بما ينم عن قيمته البلاغية ضياء الدين بن

---

(١) لسان العرب لابن منظور: (لفت).
(٢) المثل السائر، لابن الأثير: (٤٠٨/١ بتحقيق الشيخ كامل محمد عويضة - ط دار الكتب العلمية ١٩٩٨م).
(٣) هذا من إطلاق "البيان" على علوم البلاغة الثلاثة – كما ذكر العلاّمة التفتازاني (المطول: ١٣٠).
(٤) الكشاف للزمخشري: (٦٢/١ ، ٦٤ ط مصطفى البابي الحلبي ١٩٧٢م).

الأثير عند حديثه عن النوع الرابع من الصناعة المعنوية – وهو الالتفات – وذكر له تسمية أخرى، قال: "وهذا النوع وما يليه هو خلاصة علم البيان التي حولها يدندن، وإليها تستند البلاغة وعنها يعنعن... ويسمى أيضاً "شجاعة العربية"، وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورَّد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات"(١).

وقد أورد الإمام السكاكي الالتفات في علم المعاني وفي علم البديع، لكنه فَصَّل القول فيه في الأول، وأما إيراده إياه في الثاني فلم يزد على أن قال ضمن فنون البديع المعنوي: "ومنه الالتفات، وقد سبق ذكره في علم المعاني"(٢).

والعلة في إيراده له في العلمين هي ما ذكروه من أن الالتفات من حيث إنه يشتمل على نكتة هي خاصية التركيب يعدُّ من علم المعاني، ومن حيث إنه يحسن الكلام ويزينه يعدُّ من فنون البديع(٣).

قال أبو يعقوب في بيان هذا الفن وأثره في كلام العرب وفائدته: "واعلم أن هذا النوع – أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة – لا يختص بالمسند إليه ولا بهذا القدر، بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها إلى الآخر، ويسمَّى هذا النقل التفاتاً عند علماء علم المعاني، والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا

(١) المثل السائر: (٤٠٨/١).
(٢) المفتاح: (٥٣٩).
(٣) حاشية السيد الشريف على المطول: (١٣٠) وينظر شرح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي على الإيضاح: (٨٥/٢).

انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأملاً باستدرار إصغائه، وهم أحرياء بذلك... أفتراهم يحسنون قرى الأشباح فيخالفون فيه بين لون ولون وطعم وطعم، ولا يحسنون قرى الأرواح فلا يخالفون فيه بين أسلوب وأسلوب.."[١] وساق شواهد له كثيرة، منها ما استشهد به صاحب الكشاف من قول امرئ القيس:

تطَاولَ لَيْلُكَ بالأَثمدِ ونامَ الخَليُّ ولم ترْقُدِ
وباتَ وباتتْ له لَيلةٌ كلَيْلَةِ ذي العائرِ الأَرمدِ
وذلك من نبإٍ جاءني وخبِرتُه عن أبي الأَسودِ

قال أبو يعقوب: "فالْتفت في الأبيات الثلاثة".

مذهب السكاكي ومذهب الجمهور :

الالتفات عند السكاكي أعم منه عند الجمهور، لأنه لا يشْترِط أن يتقدم التعبير بإحدى الطرق الثلاثة – التكلم أو الخطاب أو الغيبة – قبل وقوع الالتفات في العبارة، بل يصح عنده ابتداء الكلام بالتفات، وذلك حيث يكون مقتضى الظاهر التعبير بإحدى الطرق الثلاثة كالتكلم مثلاً، فيعدل عنه إلى غيره، كما وقع في مطلع أبيات امرئ القيس المذكورة آنفاً، حيث كان مقتضى الظاهر أن يبتدئ بقوله (تطاول ليلي) بطريق التكلم، فعدل عنه إلى الخطاب: "تطاول ليلك"، بينما يشترط الجمهور تقدُّم التعبير بإحدى الطرق الثلاثة، ومن ثم يقع الالتفات بعده بالانتقال من التكلم إلى الغيبة أو من الخطاب إلى الغيبة، ونحو ذلك، فيكون التعبير الثاني المنتقَل إليه على خلاف مقتضى الظاهر، لأنه جاء على غير ما يترقبه السامع. ولذا فإن تفسير الالتفات عند الجمهور ومدلوله أخصُّ من مدلوله عند السكاكي.

---

(١) المفتاح: (٢٩٦ ، ٢٩٩)، وينظر: الكشاف: (١/٦٣ ، ٦٤).

قال الخطيب القزويني رحمه الله: "والمشهور عند الجمهور أن الالتفات: هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها، وهذا أخص من تفسير السكاكي لأنه أراد بالنقل أن يعبَّر بطريق من هذه الطرق عمَّا عبر عنه بغيره أو كان مقتضى الظاهر أن يعبَّر عنه بغيره منها، فكل التفات عندهم التفات عنده من غير عكس"(١).

وقد فهم العلماء مذهب السكاكي هذا من تحليله لأبيات امرئ القيس السابقة، فقد صرَّح بأنه التفت في الأبيات الثلاثة، وأن أول هذه الالتفاتات في قوله: "تطاول ليلك" – وهو مطلع أبيات – ومما قاله فيه: ".. فعل ذلك منبهاً في التفاته الأول على أن نفسه وقت ورود ذلك النبأ عليها ولهت وله الثكلى.. فأقامها مقام مكروبٍ ذي حرقٍ قائلاً له: "تطاول ليلك" مسلّياً.."(٢).

فإذا طبَّقنا مذهب الجمهور على هذه الأبيات، فإنهم لا يرون في البيت الأول التفاتاً لأنه لم يتقدمه تعبير آخر غير الخطاب، بل يعتبر هذا الخطاب فيه من قبيل التجريد المعروف في البديع. والالتفات على مذهبهم إنما وقع في البيت الثاني إلى الغيبة بقوله: "وبات وباتت له.." ثم في البيت الثالث إلى التكلم بقوله "جاءني"، وعليه ففيها التفاتان فقط.

ويرى العلامة السعد أن مذهب السكاكي هنا يوافق مذهب الزمخشري، قال في المطول: فقول صاحب الكشاف: "وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات" ظاهر في أن مذهب السكاكي موافق لمذهبه"(٣).

(١) الإيضاح: (٨٦/٢ ، ٨٧).
(٢) المفتاح: (٣٠٢).
(٣) المطول: (١٣٢). والكشاف: (٦٣/١).

هل تختلف فوائد الالتفات باختلاف المقامات؟:

تناقل البلاغيون عبارة صاحب الكشاف في فائدة الالتفات من أن الكلام "إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه"(١).

وهذه الفائدة عامة في كل التفات، ومع ذلك فلا يمتنع أن يكون لكل موقع من مواقعه في الكلام نكتة خاصة تختص بذلك المقام الذي أورد فيه، ولذا ختم الزمخشري حديثه فيه بقوله: "وقد تختص مواقعه بفوائد"(٢).

والحاصل أنه قد يكون لكل التفات لطيفة معينة ووجه مختص به بحسب مناسبة المقام(٣). وعبارات سائر البلاغيون في هذا الشأن تؤيد ذلك، وحسبنا قول أبي يعقوب:

"وهذا النوع قد تختص مواقعه بلطائف معانٍ قلَّما تتضح إلا لأفراد بلغائهم، أو للحذاق المهرة في هذا الفن والعلماء النحارير، ومتى اختص موقعه بشيء من ذلك كساه فضل بهاء ورونق، وأورث السامع زيادة هزَّة ونشاط، ووجد عنده من القبول أرفع منزلة ومحل إنْ كان ممَّن يسمع ويعقل، وقليل ما هم... وكل التفات وارد في القرآن متى صرت من سامعيه عرَّفك ما موقعه.."(٤).

الالتفات عند المتقدمين :

تناول هذا المصطلح غير واحد من العلماء المتقدمين(٥)، لكن أكثرهم أطلقوه على فنون من القول غير الذي استعمله فيه البلاغيون المتأخرون.

فممَّن ذكره من المتقدمين عبد الله بن المعتز في كتابه البديع، وعرَّفه بقوله: "هو

(١) الكشاف: (٦٣/١).
(٢) السابق: نفسه.
(٣) المطول: (١٣٤).
(٤) المفتاح: (٢٩٩) باختصار.
(٥) أفاد شيخنا الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي رحمه الله في شرحه على الإيضاح أن أبا العباس المبرد تكلم على الالتفات، وأن رأيه فيه يوافق رأي الجمهور. (الإيضاح بشرح الشيخ خفاجي: ٩٢/٢ نقلاً عن: الكامل: ٣٩/٢).

انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة، وما يشبه ذلك. ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر"[١].

وهذا التعريف أعم في مفهومه مما ذكره جمهور المتأخرين، ولذا فإن ابن المعتزّ يسوق شواهد له بعضها مما يعدّ التفاتاً عند المتأخرين، والبعض الآخر ليس كذلك[٢].

وممن ذكره أيضاً قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر" حيث يقول:

"ومن نعوت المعاني الالتفات – وبعض الناس يسميه الاستدراك – وهو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى فكأنه يعترضه إمَّا شكٌ فيه أو ظنٌ بأن راداً يردُّ عليه قوله أو سائلاً يسأله عن سببه فيعود راجعاً على ما قدَّمه، فإمَّا أن يؤكّده أو يذكر سببه، أو يحل الشك فيه، مثال ذلك قول المعطّل:

تَبِينُ صَلاَةُ الحربِ مِنَّا ومنهم   إذا ما الْتَقَيْنا والمَسَالِمُ بادِنُ

ثم مثَّل له أيضاً بقول الرمَّاح بن ميَّادة:

فلا صرمه يبدو وفِي اليأْسِ راحةٌ   ولا وصلُه يصفُو لَنَا فَنَكَارِمه

وبقول عبد الله بن معاوية:

وأَجْمِل إذا ما كُنْتَ لابدَّ مانعاً   وقَدْ يمنَعُ الشيءَ الفَتَى وهو مَجْمِلُ[٣]

وواضح أن تفسيره للالتفات بما ذكره يختلف تمام الاختلاف عمَّا اصطلح عليه المتأخرون، كما أنّ الأمثلة التي ساقها له إذا طبقنا عليها مصطلحات الجمهور فإن بعضها يمكن أن يعتبر من قبيل التذييل كالشاهدين الأول والثالث، والبعض الآخر يمكن أن يعدَّ من قبيل الاعتراض كالشاهد الثاني.

---

(١) البديع لابن المعتز: (ص ١٥٢ – دار الجيل).
(٢) البديع: (١٥٣).
(٣) نقد الشعر لقدامة بن جعفر: (٨١ ، ٨٢ بتعليق د. محمد عبد الجواد فاضل).

وممَّن نصَّ على مصطلح الالتفات أيضاً أبو هلال العسكري، فذكره في (الصناعتين) بقوله: "الالتفات على ضربين: فواحد أن يفْرَغ المتكلم من المعنى فإذا ظننت أنه يريد أن يجاوزه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به"(١).

ثم ساق لهذا الضرب شواهد منها قول الشاعر:

أَتنسى إذ تُودِّعنا سُلَيْمى بِعودِ بَشامَة سُقِيَ البَشَامَ

وقوله:

طَرِبَ الحمَامَ بِذي الأَرَاكِ فَشَاقَني لا زِلْتَ في عَلَلٍ وأَيْكٍ ناضِرِ"(٢)

ثم ذكر في الضرب الثاني ما ذكره قدامة بن جعفر في تعريفه للالتفات، وزاد بعض الشواهد على ما مثَّل به قدامة. ونلاحظ أيضاً أن ما أطلق عليه أبو هلال التفاتاً يمكن ردُّ بعضه – في مذهب جمهور المتأخرين – إلى التذييل، وبعضه إلى الاعتراض، وهما من أنواع الإطناب في اصطلاحهم المشهور، والله أعلم.

* وكذلك كان صنيع الإمام الباقلاني في حديثه عن الالتفات حيث ساق له من الشواهد ما ذكره العسكري وبعض ما ذكره قدامة من الأبيات السابقة، وفسَّر معنى الالتفات على أنه اعتراض يقع في خلال جملة من الكلام، فقال فيما روي عن إسحاق بن إبراهيم: قال: "قال لي الأصمعي: أتعرف التفاتات جرير؟ قلت: لا، فما هي؟ قال:

أتنسى إذ تودعنا سلَيمى ∴ بفرع بشامةٍ سقِي البشَام

ومثل ذلك لجرير:

متى كان الخيام بذي طلوحٍ ∴ – سقيتِ الغيث – أيتها الخيام"

"ومعنى الالتفاتات أنه اعترض في الكلام قوله "سقيت الغيث" ولو لم يعترض لم

(١) الصناعتين: (ص ٤٣٨ – بتحقيق مفيد قميحة – دار الكتب العلمية).
(٢) الصناعتين: (٤٣٨).

يكن ذلك التفاتاً وكان الكلام منتظماً، وكان يقول: متى كان الخيام بذي طلوحٍ أيتها الخيام؟ فمتى خرج عن الكلام الأول ثم رجع إليه على وجه بلطف كان ذلك التفاتاً"[١].

قال: "ومثله قول النابغة الجعدي:

ألا زعمت بنو سعد بأني ∴ ألا كذبوا – كبير السن فاني

ومنه قول كثير:

لـو أن البـاذلين – وأنـت مـنهم – ∴ رأوك تعلمـوا منـك المطـالا"[٢]

على أن بعض الشواهد التي ساقها الباقلاني في حديثه عن الالتفات هو من قبيل التذييل عند المتأخرين، كبيت عبد الله بن معاوية الذي سبق "وأجمل إذا ما كنت لابد مانعاً... البت".

ثم حمل بعض المواضع من آيات الكتاب العزيز على الالتفات بالمعنى الذي ذكره[٣].

الالتفات عند الطيبي :

عرَّف الطيبي رحمه الله الالتفات بقوله: "هو الانتقال من إحدى الصيغ الثلاث – أعني الحكاية والخطاب والغيبة – إلى الأخرى منها لمفهوم واحد رعايةً لنكتة"[٤].

ثم قسَّمه إلى ستة أقسام، وهي التي سبق الإشارة إليها في صور الالتفات. وفي القسم الخامس وهو في عبارته "من الخطاب إلى الحكاية" استشهد بأبيات امرئ القيس "تطاول ليلك..." الأبيات الثلاثة، وعلّق عليها بقوله:

(١) إعجاز القرآن للباقلاني، ص ٩٩ – بتحقيق السيد أحمد صقر.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) إعجاز القرآن للباقلاني: ص ١٠٠ ، ١٠١.
(٤) التبيان في البيان: (بتحقيق شيخنا المرحوم د. عبد الستار زموط: ص ٤٢١).

"الخطاب تجريد، لأن نفسه كان من حقها أن تتبصَّر وتتثبَّت في المصائب فعل أمثالها من الملوك فحين لم تفعل جرَّدها وخاطبها تأنيباً، وحين رأى أنَّ التحزُّن تحزُّن صدقٍ جعله كالغائب، فلما حقق أن الحزن مخصوص به لا يتعدّاه بنى على الظاهر.."[١].

ويفهم من كلامه أنه لا يعتبر الخطاب الذي في البيت الأول "تطاول ليلك" من قبيل الالتفات كما اعتبره السكاكي رحمه الله، وإنما هو تجريد، ثم بين أن الالتفات وقع من الخطاب إلى الغيبة، ثم من الغيبة إلى التكلم الذي عبَّر عنه بقوله: "فلمَّا حقّق أن الحزن مخصوص به لا يتعدَّاه بنى على الظاهر". يعنى أنه انتقل من الغيبة في قوله "وبات وباتت له.." إلى ما هو الأصل في صياغة أمثال معانيه من الحكاية عن النفس.

والحاصل أن مذهب الطيبي في الالتفات – كما يفهم من حديثه عنه – يوافق مذهب جمهور البلاغيين المتأخرين بما يتضمنه من اشتراط تقدم التعبير بإحدى الطرق الثلاثة على الالتفات – كما سبق بيانه – مع اتحاد الملتفت عنه والملتفت إليه في المعنى، وهذا واضح من تعريفه الذي نقلناه آنفاً عن كتابه "التبيان". وإذ قد تبيَّن مذهبه فهذا أوان الشروع في النماذج الواردة من هذا الفن في كتابه "الكاشف" عسى ربنا أن يهدينا سواء السبيل.

١ – **فيما روي عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (والذي نفس محمدٍ بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار)**[٢].

قال الطيبي رحمه الله:

(١) التبيان في البيان: (ص ٤٢٣).
(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان حديث رقم ٢٤٠، وهو في مسند الإمام أحمد: حديث رقم ٨٦٠٩.

"قوله (والذي نفس محمد بيده) يريد صلى الله عليه وسلم بالنفس ذاته وجملته، ويعني بـ"يده" قدرة الله وتصرفه فيه، يشير إلى أن إرادته وتصرفه مغموران في إرادة الله وتصرفه، وهو في علم البيان من أسلوب التجريد، لأنه صلى الله عليه وسلم جرَّد من نفسه الزكية صلوات الله عليه من يسمَّى محمداً، وهو هو، وأصل الكلام: "والذي نفسي"، ثم التفت من الغيبة إلى التكلم في قوله (لا يسمع بي) تنزيلاً من مقام الجمع إلى مقام التفرقة والاشتغال بدعوة الخلق، ومن مخدع الكمال إلى منصَّة التكميل"(١). ا هـ.

الالتفات هنا انتقال من التعبير بالاسم الظاهر – الذي يعد من قبيل الغيبة – وهو لفظ "محمد" في جملة الصلة الواقعة في صدر الحديث إلى التعبير بضمير التكلم الواقع بعد حرف الجر في قوله صلى الله عليه وسلم (لا يسمع بي). وقد بيَّن الطيبي النكتة في هذا الالتفات بأنه "تنزيل من مقام الجمع إلى مقام التفرقة". ولأن النبي صلى الله عيله وسلم هو إمام أولياء الله المقربين فهو بقلبه مع ربه جلَّ جلاله، وتوجه قلب العبد المؤمن بالكلية إلى الله تعالى هو ما يعبَّر عنه بمقام الجمع، وهو مع جمعه قلبه إلى ربه قد يشتغل لسانه بالتحدث إلى الناس لا سيما في دعوتهم إلى الخير، ولذا قالوا في وصف الولي لله: "الجمع في جنانه، والفرق في لسانه"، وهذا الأخير هو ما وصفه هنا بمقام التفرقة الذي وضحه بعطف التفسير عقبه بقوله: "والاشتغال بدعوة الخلق".

فالاشتغال بالدعوة إلى الله يتطلب النزول في الخطابات والمحاورات إلى ما يناسب الخلق وما يتصل بمعاملات البشر لإرشادهم إلى صراط الله المستقيم وهدايتهم إلى الحق، وهو ما أشار إليه بقوله "ومن مخدع الكمال إلى منصة التكميل".

فالغيبة التي عبَّر بها أولاً في قوله (والذي نفس محمد بيده) هي غيبة في أسماء الله تعالى وصفاته، فلا فاعل في الكون إلا الله جلَّ شأنه، ولا موجود بحق سواه، ثم

(١) الكاشف عن حقائق السنن: (٤٤٧/٢).

الالتفات إلى التكلم: (لا يسمع بي) فيه نقل للأذهان وتنبيه لها لتفطن إلى خطر الرسالة المحمدية الخاتمة التي لا يسمع بها أحد من البشر في أي بقعة من أقطار الأرض إلا وجب عليه اتباع هديها ليسلك سبيل النجاة بها، وههنا تكمن التفرقة التي أشار إليها. ثم زاد الطيبي معنى الجمع والتفرقة الذي اعتبره النكتة في الالتفات هنا توضيحاً بقوله:

"قال شيخنا شيخ الإسلام أبو حفص السهروردي – قدس الله روحه – :

قيل: الجمع اتصال لا يشاهد صاحبه إلا الحق، فمتى شاهد غيره فما جمع، والتفرقة شهود من شهد بالمباينة، فقوله (آمنَّا بالله). جمع، و(ما أنزل إلينا)[١] تفرقة. قال الجنيد: القرب بالواحد جمع، وغيبته في البشرية تفرقة، وكل جمع بلا تفرقة زندقة، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل"[٢]. ا هـ.

وأما التجريد الذي نوَّه به في صدر تعليقه على الحديث، وبيَّنه بأنه "جرَّد من نفسه الزكية ﷺ من يسمى محمداً.. إلخ" فهو من قبيل التجريد المعروف في علم البديع ضمن المحسنات المعنوية؛ على اعتبار أن قوله صلى الله عليه وسلم (والذي نفس محمد بيده) يعدُّ صورة من صور التجريد الذي عرَّفه الخطيب رحمه الله بقوله: "هو أن ينتزع من أمر ذي صفة أمراً آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كما لها فيه"[٣].

ويجوز في هذا التعبير أيضاً أن يكون من قبيل وضع الظاهر موضع الضمير، ويؤيده قول الشارح هنا: "وأصل الكلام: والذي نفسي". ا هـ. فوضع اسم "محمد" صلى الله عليه وسلم موضع ضمير المتكلم في "نفسي"، لكن اعتباره من التجريد – كما عدَّه الشارح – هو الملائم لنكتة الالتفات المذكورة، والله أعلم.

(١) سورة البقرة: ١٣٦.
(٢) الكاشف عن حقائق السنن: (٤٤٧/٢).
(٣) الإيضاح: (٥٤/٦).

٢ – فيما روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا صليتم فأقيموا صفوفكم، ثم ليؤمكم أحدكم، فإذا كَبَّر فكبِروا، وإذا قال: (غَيْرِ المَغْضُوب عَلَيهِم، ولاَ الضَّالّين) فقولوا: آمين؛ يحببكم الله. فإذا كَبَّر وركع فكبروا واركعوا، فَإن الإمام يركع قبلكَم ويرفع قبلكم. فقال رسول الله . ﷺ : فتلك بتلك. قَال: وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد؛ يسمع الله لكم)[(١)].

وقد بنى الإمام الطيبي كلامه على الالتفات في شرح هذا الحديث على أساس أن كلَّ مصلٍ ينطق بالعبارتين جميعاً: "سمع الله لمن حمده"، "ربنا لك الحمد" فالناطق بهما واحد، فحينئذ يقع الالتفات من الغيبة في الأولى إلى الخطاب في الثانية، ويتجلَّى ذلك في قوله: "ومذهبنا أنه يجمع بينهما الإمام والمأموم والمنفرد، لأنه ثبت أنه ﷺ قال: (صلُّوا كما رأيتموني أصلى) [(٢)].

ثم قال الطيبي رحمه الله: "قوله (لك الحمد) هكذا بلا واو، وفي غير هذا الموضع بالواو، والمختار أن الوجهين جائزان. وقال القاضي عياض: على إثبات الواو يكون قوله "ربنا" متعلقاً بما قبله، تقديره: "سمع الله لمن حمده يا ربنا فاستجب حمدنا ودعاءنا، ولك الحمد". أقول: هذه الرمزة مفتقرة إلى مزيد كشف وبيان، ذلك أن قوله "سمع الله لمن حمده" وسيلة، و"ربنا لك الحمد" طلب، وفيها التفات من الغيبة إلى الخطاب، فإذا روي بالعطف يتعلق "ربنا" بالأولى ليستقيم عطف الجملة الخبرية على مثلها، وإذا عزل عنه الواو يتعلق "ربنا" بالثانية، فإذاً لا يجوز عطف الإنشائي على الخبري ، وتقديره على الوجه الأول: يا ربنا قبلت في الدهور الماضية حمد من حمدك من الأمم السابقة، ونحن نطلب منك الآن قبول حمدنا، ولك الحمد أولاً وآخراً.

(١) صحيح مسلم: كتاب الصلاة – حديث رقم ٦٢. وسنن أبي داود: كتاب الصلاة – تفريع أبواب الركوع والسجود – حديث رقم ٩٧٢.
(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه: رقم ٢١٣١. والبيهقي في السنن الكبرى: رقم ٣٨٥٦. ومعرفة السنن والآثار: رقم ٤٦٠٤.

فأخرجت الأولى على الجملة الفعلية وعلى الغيبة، وخصَّ اسم الله تعالى الأعظم بالذكر، والثانية على الاسمية وعلى الخطاب لإرادة الدوام، ولمزيد إنجاح المطلوب. فعلى هذا في الكلام التفاتة واحدة، وعلى الأول التفاتان من الخطاب إلى الغيبة، ومنه إلى الخطاب، والله أعلم"[1]. ا هـ.

فالملاحظ من هذا التفصيل في الفرق بين الروايتين رواية العطف "ربنا ولك الحمد" ورواية ترك العطف أنه لابد من تقدير جملة في حالة العطف ليحصل التناسب بين المعطوف والمعطوف عليه من حيث الخبرية والإنشائية، ويترتب على ذلك وقوع التفاتين لأن لفظ "ربنا" منادى، وسمت الكلام المؤتلف الألفاظ أن يوجَّه إلى المنادى كلام قبل العطف، ومن ثمَّ صحَّ أن يتعلق لفظ "ربنا" بما قبله وهو قوله "سمع الله لمن حمده" كما نقله عن القاضي عياض رحمه الله، فكأن أصل التعبير: يا ربنا سمع الله لمن حمده وقد قبلت في الدهور الماضية حمد من حمدك، ونحن نطلب منك الآن قبول حمدنا، ولك الحمد.. "على نحو ما قدَّره الشارح فيكون التفاتاً من الخطاب "يا ربنا" إلى الغيبة في "سمع الله لمن حمده"، ومنها إلى الخطاب في قوله "ولك الحمد"، فيكون فيه – على رواية العطف التفاتان، وقد ألمح إلى أن الالتفات إلى الغيبة فيه تعظيم لله عز وجل بقوله "وخصَّ اسم الله الأعظم... إلخ"، ثم الالتفات إلى الخطاب بالجملة الاسمية دالٌّ على دوام الحمد لله المرجو منه إنجاح المطلوب والقبول.

وأما على رواية ترك العطف "ربنا لك الحمد" فيحصل التفاتة واحدة من الغيبة بذكر اسم الجلالة في "سمع الله لمن حمده" إلى الخطاب في العبارة الثانية، والالتفات إلى الخطاب فيها أيضاً يدل على تعليق الرجاء والتوجه بالمقاصد كلها إلى الباري المحمود به . سبحانه وتعالى .

(١) الكاشف عن حقائق السنن: (١٠٠١/٣).

٣ – وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إذا خرجت روح المؤمن تلقَّاها ملَكان يُصعِدانها). قال حماد[١]: فذكَر من طيب ريحها وذكر المسك. قال: (ويقول أهل السماء: روحٌ طيبةٌ جاءت من قِبَل الأرض، صلَّى الله عليك وعلى جسدٍ كنت تعمرينه، فيُنطلق به إلى ربه، ثم يقول: انطلقوا به إلى آخرِ الأجل). قال: (وإن الكافَر إذا خرجت روحه) قال حماد: وذكر من نتنها وذكر لعناً، (ويقول أهل السماء: روحٌ خبيثةٌ جاءتْ من قبل الأرض، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل). قال أبو هريرة رضى الله عنه: فَرَدَّ رسَول الله صلى الله عليه وسلم ريطةً كانت عليه على أنفه هكذا[٢].

قال الطيبي رحمه الله: "قوله (صلَّى الله عليك) التفت فيها من الغيبة في قوله "جاءت" غلى الخطاب، وفائدته مزيد اختصاص بالصلاة عليها، وقوله "تعمرينه" استعارة، شبه تدبيرها الجسد بالعمل الصالح بعمارة من يتولى مدينة ويعمرها بالعدل والصلاح"[٣]. ا هـ.

وهنا إذا وقفنا بشيء من التأمل على الملتفت عنه في عبارة "روح طيبة جاءت من قبل الأرض" والملتفت إليه بعبارة "صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه"؛ لاحظنَا أن تغيير الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب يثير انتباه السامعَ ويحَرك خاطره، فيستحضر في الذهن فضيلة تلك الروح الزكية للمؤمن التي طابت آثارها بطيبها، فكانت جديرة باختصاصها بالصلاة عليها، والثناء على محلها ومرتحلها، وما كان ذلك ليسترعي انتباه السامع ويوقظ عقله لمعرفة فضيلة تلك الروح لولا ورود الالتفات عليه في هذا السياق.

٤ – وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (رأيت ليلةَ أُسرِيَ بي

(١) قال الطيبي: قوله "قال حماد": هو حماد بن زيد، أحد رواة هذا الحديث. (الكاشف: ١٣٧٨/٤).
(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الجنة وصفة نعميها – حديث ٢٨٧٢.
(٣) الكاشف: (١٣٧٨/٤).

موسى رجلاً آدم طُوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءةَ، ورأيت رجلاً مربوع الخَلْق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، ورأيت مالكاً خازنَ النار، والدجال، في آياتٍ أَراهنَّ الله إياه، (فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِه)(١).

قال الطيبي رحمه الله: قوله "في آيات": أي رأيت المذكور في جملة آيات، لعله أراد الآيات المذكورة في قوله تعالى: (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)(٢)، فعلى هذا في الكلام التفات حيث وضع "إياه" في موضع "إيايَ"، أوَ الراوي نقل معنى ما تلفظ به، والظاهر أن قوله (فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِه) يتعلق بأول الكلام وهو حديث موسى عليه الصلاة والسلام تلميحاً إلى ما في التنزيل من قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِه)(٣)، قيل من لقائك موسى عليه الصلاة والسلام ليلَة الإسراء، فيكون ذكر عيسى عليه الصلاة والسلام وما يتبعه من الآيات مستطرداً لذكر موسى، وإنما قطعه عن متعلقه وأخَّره ليشمل معناه "الآيات" على سبيل التبعية والإدماج، أي: لا تكن يا محمد في رؤية ما رأيته من الآيات في شك.

فعلى هذا الخطاب في قوله تعالى (فلا تكن) لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والكلام كله متصل ليس فيه تغيير من الراوي إلا لفظة "إياه". ويشهد له قول الشيخ محي الدين(٤) في شرح هذا الحديث: كان قتادة يفسرها أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قد لقي موسى عليه السلام، ودافعه عليه جماعة.. ومعناه: فلا تكن في شك من لقائك موسى. والشارحون ذهبوا إلى أن قوله "في آيات أراهنّ الله إياه.. إلخ" من كلام الراوي ألحقه بالحديث دفعاً لاستبعاد السامعين، وإماطةً لما عسى أن يختلج في صدوركم(٥). ا هـ.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه: كتاب بدء الخلق – حديث ٣٢٣٩. وهو في صحيح مسلم: كتاب الإيمان – باب الإسراء – حديث رقم ١٦٥.
(٢) سورة النجم: ١٨.
(٣) سورة السجدة: ٢٣.
(٤) يعني الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم: (٢٢٨/٢ – دار إحياء التراث العربي).
(٥) الكاشف: (٣٦١٥/١١ ، ٣٦١٦).

ويتضح من قوله "فعلى هذا في الكلام التفات" أن الالتفات إنما يتصور هنا إذا كانت جملة "في آيات أراهنَّ الله إياه" من منطوق النبي ﷺ ، ومما تلفظ به في هذا الحديث، فيكون التفاتاً من التكلم في "رأيت" إلى الغيبة في "إياه"، فيكون تغيير الأسلوب إيقاظاً لإصغاء السامعين، وباعثاً على تنبُّههم إلى ما خصَّ الله تعالى به سيد الخلق صلى الله عليه وسلم من اطلاعه على تلك المشاهدات، وما فضَّله به عليه الصلاة والسلام في تلك الرحلة القدسية المباركة رحلة الإسراء والمعراج فأراه من آيات ربه الكبرى، وأسعده بلقاء سيدنا موسى وعيسى، وخليل الرحمن سيدنا إبراهيم، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين عليهم جميعاً الصلاة والسلام. وأما إذا كان قوله "في آيات أراهن الله إياه" من لفظ راوي الحديث فتكون النكتة في تعبيره بذلك هي ما أشار إليه الشارح من دفع استبعاد السامعين وإماطة ما قد يختلج في صدورهم مما لا يليق بكمال تصديقهم لحضرة الصادق الأمين المصدوق ﷺ في كل ما أخبر به وقصَّه على أصحابه رضوان الله عليهم.

٥ – وعن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: "أجل والله إنه لموصوف ببعض صفته في القرآن: (يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظٍ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأ ن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً وأذاناً صماً وقلوباً غلفا)[1].

ومما جاء في شرح الطيبي رحمه الله لهذا الحديث قوله: (ليس بِفَظّ) يحتمل أن يكون آية أخرى في التوراة لبيان صفته، وأن يكون هو حالاً إما من (المتوكل) وإما من

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب البيوع برقم ٢١٢٥. وكتاب تفسير القرآن برقم ٤٨٣٨.

الكاف في (سمَّيتك)، فعلى هذا فيه التفات"[١]. ا هـ.

فقوله "وأن يكون هو حالاً.. إلخ" توجيه لعبارة (ليس بفظ ولا غليظ) على أنه التفات من ضمير الخطاب في (سميتك) إلى ضمير الغيبة في العبارة، ولا يخفي ما في تغيير الأسلوب هنا بهذا الالتفات من لفت انتباه السامع وتنشيط ذهنه لإدراك هذه الفضائل النبوية والصفات العلية التي اختصَّ بها سيد الخلق صلى الله عليه وسلم كما شهدت بها التوراة مما يدل على تعظيم الله عز وجل لقدره عليه الصلاة والسلام وما له من أشرف المنازل عند ربه تبارك وتعالى، وليس أدلَّ على ذلك من الإشادة بذكر مكارم أخلاقه وفضائله في الكتب السماوية المنزلة على من سبقه من رسل الله عليهم الصلاة والسلام كالتوراة.

٦ – وعن جرير بن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ : (ألا تريحني من ذي الخَلَصة؟) فقلت: بلى. وكنت لا أثبت على الخيل، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فضرب يده على صدري حتى رأيت أثر يده في صدري وقال: (اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً). قال: فما وقعت عن فرسي بعد، فانطَلَق في مائةٍ وخمسين فارساً من أحمس فحرَّقها بالنار وكسرها[٢].

قال الطيبي رحمه الله: قوله "فانطلق" هو من كلام الراوي، وقيل: هو كلام جرير نفسه، ففيه التفات[٣].

ويفهم من قول الشارح: "وقيل: هو كلام جرير نفسه، ففيه التفات" أنَّ قوله "فانطلق في مائة وخمسين فارساً" عقب قوله "فما وقعتُ عن فرسي بعد": التفات من التكلم إلى الغيبة، وهذا على اعتبار أَن المتكلم بهما جميعاً هو الصحابي سيدنا جرير

(١) الكاشف: (٣٦٣٩/١١).
(٢) متفق عليه: صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير – برقم ٣٠٢٠، وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٧٦، وذو الخلصة: بيت كان فيه صنم لدوس وخثعم وبجيلة، وقيل: هو الكعبة اليمانية . وأحمس: هم قريش، وكنانة، وجديلة قيس، سمّوا حُمْساً لأنهم تحمَّسوا في دينهم: أي تشددوا. (النهاية لابن الأثير: حمس- خلص).
(٣) الكاشف: (٣٧٧٨/١٢).

بن عبد الله رضي الله عنه. ومن فائدة الالتفات في هذا المقام: التواضع وهضم النفس، ونسبة الفضل إلى الله عز وجل بإسناد الفعل "انطلق" إلى ضمير الغيبة، والعدول عن إسناده إلى ضمير المتكلم تبرُّؤاً من حوله وقوته إلى حول الله ﷻ وقوته، وكذلك الشأن في الفعلين المعطوفين "فحرقها"، و"كسرها". وهو من التحقق بقول الله سبحانه: (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) [1] وقوله عزّ شأنه: (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ) [2]. وذلك دَأب الصالحين من عباد الله، فإنهم إذا أحسنوا عملاً لم يتفاخروا به لأنهم يعلمون أنه لولا توفيق الله لهم وفضله عليهم ورحمته لم يحسنوا، ولذا اقتضى المقام أن لا يستمر سيدنا جرير في التعبير بضمير التكلم فيجري كلامه على وتيرة واحدة بأن يقول مثلاً: "فانطلقت.. فحرقتها وكسرتها"، بل راعى في عبارته ما يقتضيه المقام من هذا الأدب الأمثل. والله أعلم.

---

(١) سورة آل عمران (١٢٦).
(٢) سورة آل عمران (١٦٠).

ثانياً : وضع المضمر موضع المظهر

قيمته البلاغية :

من أساليب الكلام على خلاف مقتضى الظاهر التي نبَّه البلاغيون على مواطن استحسانها وتعرضوا لذكر مقاماتها: وضع المضمر موضع الاسم الظاهر، وذلك إذا كان ظاهر الحال يقتضي التعبير بالاسم المظهر، فيعدل عنه المتكلم البليغ إلى التعبير بالضمير لنكتة يقتضيها المقام، فيقع الإضمار حينئذ موقعاً لطيفاً عند السامع. وتختلف الأسرار البلاغية لهذا الأسلوب باختلاف الأحوال الداعية إلى التعبير به في عبارات البلغاء، ولذلك نجد أئمة هذا الشأن الذين عرضوا لهذا الأسلوب يتحدثون عنه من خلال ذكر الأسرار التي يوضع من أجلها المضمر موضع المظهر.

يقول الإمام الزمخشري في قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)[١]: "عظَّم القرآن الله من ثلاثة أوجه": – وذكر منها – "أنه جاء بضَميره دَون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه"[٢].

وتحدث الخطيب القزويني عن هذا الأسلوب – وتبعه شراح التلخيص – في تعبيرات معينة، كالمدح باستعمال "نعم" في قولهم: "نعم رجلاً زيداً"، والذم باستعمال "بئس" في: "بئس رجلاً عمرو" عند مَن يجعل المخصوص بالمدح أو بالذم حبراً لمبتدأ محذوف، وبهذا الاعتبار يكون فاعل "نعم" مضمراً لم يتقدمه ما يعود عليه، فيكون إضماراً قبل الذكر. وكضمير الشأن والقصة في نحو: "هو زيدٌ عالم"، و"هي هندٌ مليحةٌ" موضع: الشأن زيد عالم، والقصة هند مليحة.

قال الخطيب رحمه الله في سر الإضمار في هذه التعبيرات ونحوها: "ليتمكن في ذهن السامع ما يعقبه، فإن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقي منتظراً لعقبى الكلام كيف تكون، فيتمكن المسموع بعده في ذهنه فضل تمكن، وهو السر في التزام

(١) سورة القدر: ١.
(٢) الكشاف: (٢٧٣/٤).

تقديم ضمير الشأن أو القصة، قال الله تعالى: (قُل هو اللَّه أَحدٌ)[١] وقال: (إِنَّه لَا يُفْلِحُ الْكَافِرونَ)[٢]، وقال: (فَإِنَّها لَا تَعمى الْأَبصار)[٣]،[٤].

وقال السعد التفتازاني في النكتة في وضع المضمر موضع المظهر بقولهم: "نعم رجلاً زيد" مكان: "نعم الرجل": "ليحصل به الإبهام ثم التفسير المناسب لوضع هذا الباب الذي هو للمدح العام أو الذم العام – أعني من غير تعيين خصلة.."[٥].

تناول الإمام الطيبي له في شرحه :

ورد هذا الأسلوب في نصوص من السنة النبوية وتعرض الإمام الطيبي لبيانه أثناء شرحه وتحليله لتراكيب تلك النصوص الشريفة: من ذلك ما روي:

١ – عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ جاءه رجل فقال: "إني أُحدّث نفسي بالشيء لأن أكون حُممةً أحبُّ إليَّ من أن أتكلم به". قال: "الحمد لله الذيَ ردَّ أمره إلى الوسوسة"[٦].

قال الطيبي: "قوله (ردَّ أمره) الضمير فيه يحتمل أن يكون للشيطان وإن لم يجرِ له ذكر لدلالة السياق عليه، والأمر يحتمل أن يكون واحد الأوامر لقوله تعالى: (وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ)[٧] يعنى: كان الشيطان يأمر الناس بالكفر قبل هذا وعبادة الأوثان. وأما الآن فلا سبيل له إليهم سوى الوسوسة. ويجوز أن يكون بمعنى الشأن، ويحتمل أن يكون للرجل. و"الأمر" بمعنى الشأن لا غير، أي: ردَّ شأن هذا الرجل من الكفر إلى الوسوسة.."[٨]. ا هـ .

---

(١) سورة الإخلاص: ١.
(٢) سورة المؤمنون: ١١٧.
(٣) سورة الحج: ٤٦.
(٤) الإيضاح: (٨٢/٢).
(٥) المطول: ١٢٧.
(٦) رواه النسائي في السنن الكبرى، برقم ١٠٤٣٥، وهو في مسند أحمد برقم ٣١٦١.
(٧) سورة النساء: ١١٩.
(٨) الكاشف: (٥٢٥/٢).

فقد فسَّر الضمير في "أمره" على ثلاث احتمالات: الأول: إضمار ما لم يسبق ذكره وهو الشيطان، فيكون من وضع الضمير موضع المظهر بناء على أن أصل التعبير: "ردَّ أمر الشيطان" فوضع الضميرموضع لفظ "الشيطان" صوناً للسان عن ذكره باسمه وتنزهاً عنه، أو تحقيراً له واستصغاراً لشأنه. والاحتمال الثاني أن يكون الضمير للشأن، وهو أيضاً ما يوضع موضع المظهر، فيكون من قبيل الإبهام الذي يعقبه الإيضاح والتفسير الحاصل بقوله "إلى الوسوسة"، ومعلوم أن النفوس تستشرف إلى الشيء المبهم، فإذا أعقبه في الكلام تفسيره تمكن منها فضل تمكن وأما الاحتمال الثالث فليس من هذا القبيل لأنه من وضع ضمير الغيبة مكان الخطاب، وهو التفات على مذهب السكاكي.

٢ – وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ : "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلُّوا علي، فإنه من صلَّى عليَّ صلاةً صلَّى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة"(١).

قال الطيبي: "قوله (أن أكون أنا هو) قيل: إن "هو" خبر كان وضع بدل "إياه".. ويحتمل أن لا يكون "أنا" للتأكيد، بل يكون مبتدأ، و"هو" خبره، والجملة خبر "أكون"، ويمكن أن يقال: إن هذا الضمير وضع موضع اسم الإشارة، أي: أكون أنا ذلك العبد، كما في قول رؤبة:

فيها خطوط من سواد وبلق ∴ كأنه في الجلد توليع البهق

قيل له: إن أردت الخطوط فقل "كأنها"، وإن أردت السواد والبلق فقل "كأنهما". فقال: أردت كأن ذاك"(٢). ا هـ.

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة برقم ٣٨٤. وهو في سنن أبي داود: كتاب الصلاة رقم ٥٢٣.

(٢) الكاشف: (٩١٢/٣).

ومحل الاستشهاد هنا هو توجيهه للعبارة المذكورة من الحديث بقوله: "ويمكن أن يقال: إن هذا الضمير وضع موضع اسم الإشارة.. إلخ"، فهو من قبيل وضع المضمر موضع المظهر، حيث وضع "هو" مكان اسم الإشارة "ذلك" على نحو ما فسره.

وقد تكلم الإمام الزمخشري على وضع الضمير موضع اسم الإشارة في سياق طويل ثم أشار إليه الفخر الرازي في قوله تعالى: (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ)[1] فقال: "(منه) أي من الصدقات، أو من ذلك، وهو كقوله تعالى: (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ)[2] بعد ذكر الشهوات" ا هـ، ثم ساق بيت رؤبة المذكور شاهداً على ذلك[3].

ونذكر شيئاً من مناقشة الزمخشري للمسألة لما فيها من الفائدة، فقد قال في قوله تعالى: (إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ)[4]: فإن قلت: (بين) يقتضي شيئين فصاعداً، فمن أين جاز دخوله على (ذلك)؟ قلت: لأنه في معنى شيئين، حيث وقع مشاراً به إلى ما ذكر من الفارض والبكر. فإن قلت: كيف جاز أن يشار به إلى مؤنثين وإنما هو للإشارة إلى واحد مذكر؟ قلت: جاز ذلك على تأويل "ما ذكر"، و"ما تقدم" للاختصار في الكلام، كما جعلوا "فَعل" نائباً عن أفعال جمة تذكر قبله، تقول للرجل: "نعم ما فَعَلْت"، وقد ذكر لك أفعالاً كثيرة وقصة طويلة، كما تقول له: "ما أحسن ذلك". وقد يجرى الضمير مجرى اسم الإشارة في هذا، قال أبو عبيدة: قلت لرؤبة في قوله:

فيها خطوط من سواد وبلق ∴ كأنه في الجلد توليع البهق

(١) سورة النساء: ٤.
(٢) سورة آل عمران: ١٥.
(٣) التفسير الكبير: (٩/٤٩٣).
(٤) سورة البقرة: ٦٨.

إن أردت الخطوط فقل "كأنها"، وإن أردت السواد والبلق فقل "كأنهما". فقال: أردت "كأن ذلك" ويلك. والذي حسَّن منه أن أسماء الإشارة تثنيتها وجمعها وتأنيثها ليست على الحقيقة، وكذلك الموصولات..."(١).

فالحاصل أن وضع الضمير في مثل هذا المقام موضع اسم الإشارة يأتي للإيجاز في التعبير، كما أن استعمال اسم الإشارة الذي وضع هو موضعه إنما يقع للاختصار في الكلام بدلاً من قولهم "ما ذكر" أو "ما تقدم". ولا يخفى أن قوله ﷺ عليه وسلم "أن أكون أنا هو" أوجز وأبلغ مما لو قال: أن أكون أنا ذلك العبد. والله أعلم.

٣ – وفي حديث آخر عن معاذ رضي الله عنه قال: أوصاني رسول الله ﷺ بعشر كلمات، قال: "لا تشرك بالله شيئاً وإن قُتلْتَ وحُرِّقت، ولا تعقَّنَّ والديك وإن أمراكَ أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تتركنَّ صَلاة مكتوبة متعمداً، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برِئتْ منه ذمَّةُ الله، ولا تشربنَّ خمراً فإنه رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية فإنَّ بالمعصية حلَّ سَخط الله.... الحديث"(٢).

قال الإمام الطيبي رحمه الله: "قوله (فإنَّ بالمعصية) اسم "إن" ضمير الشأن حذف من "إنَّ" المكسورة المثقلة، كقول الشاعر:

فلا تخذل المولى وإن كان ظالماً ∴ فإن به تَنال الأمور وتَرأَب

والتقدير: "فإنه"، يقول: لا تخذل مولاك وإن ظلمك، فربما تحتاج إليه وترجع إلى معاونته في بعض الأمور فيجبر كسرك. وقيل: لا يحذف لأن المقصود من الكلام المصدَّر به هو التعظيم والفخامة، فلا يلائمه الاختصار. قلت: فيه نظر، لأنه لو كان كما قيل لوجب أن لا يحذف أصلاً، وقد حذف اسم "كاد" في قوله تعالى: (كَادَ يزِيغ

(١) الكشاف: (٢٨٧/١).
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده: من حديث معاذ بن جبل – برقم ٢٢٠٧٥.

قُلُوب فَرِيقٍ مِنْهُمْ)[١]. وأما قول ابن الحاجب: وحذفه منصوباً ضعيف، فقد ضعَّفوه أيضاً، وكيفَ تقول ذلك؟ وقد جاء في الكلام الفصيح، قال ﷺ في النهي عن الصلاة في أوقات الكراهة: "اقصر عن الصلاة فإنَّ حينئذ تسجر جهنم.. الحديث"[٢] أي: فإن الأمر والشأن حينئذ[٣]. ا هـ.

ليس من غرضنا في هذا المقام أن نقف على هذه القضية النحوية التي يناقشها الشارح ههنا، والتي تدور حول حذف ضمير الشأن إذا وقع اسماً لإن المكسورة على نحو ما بيَّنه، وإنما يلفت نظرنا أن تركيب العبارة "فإن بالمعصية.." جاء على نمط يخالف جميع الجمل التي جاءت قبلها في سياق الحديث الشريف، فالملاحظ أن التعبيرات جاءت بالفعل المضارع المقترن "بلا" الناهية: "لا تشرك"، "ولا تعقّن والديك"، و"لا تتركنَّ صلاة"، و"لا تشربن خمراً".. فلما وصل الكلام إلى هذه الجملة تحوَّل التعبير إلى أسلوب التحذير: "وإياك والمعصية، فإن بالمعصية حلَّ سخط الله".

قال الطيبي في شرحه مبيناً فائدته: "تحذير وتعميم بعد التخصيص، وإيذان بأن المعاصي السابقة أعظمها ضراً، وأكثرها اعتباراً"[٤]. ا هـ .

وأما ضمير الشأن في قوله "فإن المعصية" فسواء كان مستتراً أو بارزاً فإن فيه نوع إبهام يتطلب إيضاحاً، فإذا وقع بعده الإيضاح تمكن من نفس السامع فضل تمكن، وهذا يتلاءم تماماً مع مقام التحذير من خطر المعاصي والتجرؤ عليها، ومبارزة الله ﷻ بها، والتقرير بأن من سلك هذا المسلك حلَّ عليه سخط الله – نعوذ برضاه من سخطه – وحذف ضمير الشأن هنا لا يتعارض – فيما أرى – مع كون المقصود من الكلام المصدَّر به هو التعظيم والفخامة – على حد الرأي الذي نقله

(١) سورة التوبة: ١١٧.
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها – برقم ٨٣٢.
(٣) الكاشف: (٥١٤/٢).
(٤) الكاشف: (٥١٤/٢).

الشارح آنفاً وردَّه مستدلاً بحذف اسم "كاد" وهو ضمير الشأن من الآية الكريمة المذكورة، لأن تفسيره بالجملة الواقعة بعده سواء كان ضمير الشأن بارزاً أو مستتراً يحصل به الإيضاح بعد الإبهام، ويتولد من ذلك التفخيم والتعظيم للمعنى، وهو هنا التحذير من المعاصي ومن شرها ووبالها على صاحبها. والله أعلم.

ثالثاً : وضع المظهر موضع المضمر

وهو عكس الصورة السابقة، وذلك بأن يكون مقتضى الظاهر أن يعبَّر بالضمير، فيعدل عنه إلى التعبير بالاسم الظاهر. وحديث البلاغيين عن هذا الأسلوب جاء من خلال تصنيفه على ضربين: إما أن يكون المظهر اسم إشارة، وإما أن يكون غير ذلك. فإن كان اسم إشارة فإنه يصار إليه لأغراض أهمها: كمال العناية بتمييزه، أو التهكم بالسامع، أو الإشعار بكمال فطانته، أو بكمال بلادته، أو ادّعاء كمال ظهوره. وإن كان غير اسم إشارة فالعدول عن المضمر إليه إما لزيادة تمكينَه عند السامع، أو لتربية المهابة عنده، أو لتقوية داعى المأمور إلى الامتثال، أو للاستعطاف، أو لنحو ذلك(١).

وبتتبع ما جاء من هذا الأسلوب في النصوص الواردة في "الكاشف عن حقائق السنن" تبيَّن من خلال البحث أنه من الضرب الثاني – أعنى ما وضع فيه المظهر غير اسم الإشارة موضع الضمير – فمن ذلك:

١ – ما جاء في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: "كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل اليد اليمنى على ذراعه اليسرى في الصلاة"(٢).

قال شرف الدين الطيبي: "قوله (أن يضع الرجل) في وضع "الرجل" موضع ضمير الناس تنبيه على أن القائم بين يدي الملك الجبار ينبغي أن لا يهمل شريطة الأدب، بل يضع يده على يده ويطأطئ رأسه، كما يفعل بين يدي الملوك"(٣). ا هـ.

فقد كشف بما نبَّه إليه النقاب عن فائدة وضع الاسم الظاهر "الرجل" موضع ضمير الناس، إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال: كان الناس يؤمرون أن يضعوا...

(١) ينظر: الإيضاح: (٨٢/٢ – ٨٥)، والمطول (١٢٨ ، ١٢٩)، وشروح التلخيص: (٤٥٢/١ – ٤٦٠).
(٢) رواه البخاري: في كتاب الأذان برقم ٧٤٠. وهو في موطأ مالك: كتاب قصر الصلاة برقم ٤٧.
(٣) الكاشف: (٩٨١/٣ ، ٩٨٢).

إلخ، فبيَّن أنه تنبيه على وجوب التزام من يقف في الصلاة لهيئة الأدب والخشوع، لأنه قائم بين يدي مالك الملك سبحانه وتعالى، وأن ذلك مما يلزم كل فرد منفرداً كان أو في جماعة من المصلين، ولعل من الممكن أن يقال أيضاً إن التعبير بالمظهر هنا لزيادة تمكين هذه الحالة عند السامعين، وتقرير هيئة المصلي التي ينبغي أن يكون عليها أثناء صلاته في الأذهان. والله أعلم.

٢ – وفي حديث أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت:

"فقدتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةً فإذا هو بالبقيع، فقال: "أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله؟" قلت: يا رسول الله إني ظننت أنك أتيت بعض نسائك. فقال: "إن الله تعالى ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا، فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب"[(١)].

قال الإمام الطيبي: "قوله (أن يحيف الله) الحيف: الجور والظلم، يعني: ظننت أني ظلمتك بأن جعلت من نوبتك لغيرك، وذلك مناف لمن تصدَّى لمنصب الرسالة، وهو عند الله بمكانة عظيمة. وهذا معنى العدول عنِ الظاهر، وأن يقال: أظننت أنّي أحيف عليك؟ فذكر الله تمهيداً لذكر الرسول تنويهاً بشأنه، ووضع "رسوله" مَوضَع الضمير للإشعار بأن الحيف ليس من شيم الرسل. وقولها "إني ظننت" إلى آخره؛ أيضاً إطناب في الجواب، وعدول عن أن يجاب بـ"نعم" مزيداً للتصديق"[(٢)]. ا هـ.

فقد اتضح بهذا البيان المفصل النكتة البلاغية في العدول عن استعمال الضمير الذي هو مقتضى الظاهر: "أني أحيف عليك"؛ إلى قوله عليه الصلاة والسلام: "تخافين أن يحيف الله عليكِ ورسوله"، وهو تنزيه رسل الله تعالى عن هذه الصفة التي لا تليق بكمالاتهم، ولذلك عبِر بالاستفهام الإنكاري: "أكنت تخافين؟" الذي حاصله: ما كان ينبغي أن تخافي من وقوع الحيف من الله ورسوله. ثم مهَّد لبيان عظم مقام

(١) سنن الترمذي: أبواب الصوم – رقم ٧٣٩. وسنن ابن ماجة: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها – رقم ١٣٨٩.

(٢) الكاشف: (١٢٣٥/٤ ، ١٢٣٦).

الرسول صلى الله عليه وسلم بذكر الله عز وجل قبل عطف "رسوله"، كما بيَّنه الشارح بقوله "فذكر الله تمهيداً لذكر الرسول تنويهاً بشأنه"، وهو مما يندرج في غرض تربية المهابة عند السامع، والله أعلم.

٣ – وفيما روي عن محمد بن قيس بن مخرمة قال: "خطب رسول الله ﷺ فقال: إنَّ أهل الجاهلية كانوا يدفعون من عرفة حين تكون الشمس كأنها عمائم الرجال في وجوههم قبل أن تغرب، ومن المزدلفة بعد أن تطلع الشمس حين تكون كأنها عمائم الرجال في وجوههم. وإنا لا ندفع من عرفة حتى تغرب الشمس، وندفع من المزدلفة قبل أن تطلع الشمس، هدينا مخالفٌ لهدْي عبَدة الأوثان والشرك"(١).

قال الطيبي: "قوله (كأنها عمائم الرجال) شبَّه ما يقع من الضوء على الوجه طرفي النهار حينما دنت الشمس من الأفق بالعمامة لأنه يلمع في وجهه لمعان بياض العمامة، والناظر إذا نظر إليه يجد الضوء في وجهه كنور العمامة فوق الجبين.

والمعنى: إنا نخالف الجاهليين بتأخير الدفع من عرفة، وتقديمه من مزدلفة، لأن هدينا – أي طريقتنا – مخالف لطريقتهم. فأخرج العلة مخرج الاستئناف للمبالغة، ووضع المظهر موضع المضمر للدلالة على ما هو المقتضي للمخالفة والداعي إليها.. والإضافة في "عمائم ا لرجال" لمزيد التوضيح.. والمعني بوضع المظهر موضع المضمر قوله "عبدة الأوثان" مقام "هديهم" لما سبق من قوله "إن أهل الجاهلية".."(٢). ا هـ.

(١) مسند الإمام الشافعي: حديث رقم ٩١٦ – بترتيب السندي. ورواه البيهقي في معرفة السنن والآثار: حديث رقم ١٠١٢٠.
(٢) الكاشف: (١٩٩٥/٦).

فقد بيَّن الشارح أنه كان أصل التعبير "هدينا مخالف لهديهم" لتقدم الحديث عن طريقة حج أهل الجاهلية، فأقيم المظهر مقام ضمير الغيبة في قوله صلى الله عليه وسلم "هدينا مخالف لهدي عبدة الأوثان والشرك"، والغرض من هذا العدول عن مقتضى الظاهر؛ هو تقوية الداعي إلى مخالفتهم، لأن المأمورين باتباع هذا الهدي النبوي أهل إيمان وتوحيد، وأولئك الجاهليون كانوا أهل أوثان وشرك، ومن ثمَّ جاءت هذه ا لعبارة مستأنفة تنبيهاً على ما تضمنته من التعليل للتوجيهات النبوية التي سبقتها، ومبالغة في بيان تميُّز أهل الحق على أهل الباطل. وهذا الاستئناف البياني هو المعروف عند علماء المعاني بـ"شبه كمال الاتصال" الذي يقتضي فصل الجملة التي فيها ذكر السبب عن سابقتها على تقدير سؤالٍ ناشئ عن الجملة السابقة تجيب عنه الجملة اللاحقة، وكأن ذلك السؤال المقدر: لِم لا ندفع كدفعهم؟ فوقع الجواب بهذا الاستئناف أحسن موقع. والله أعلم.

٤ – وفي حديث آخر عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أصاب حداً فعجّل عقوبته في الدنيا، فالله أعدل من أن يُثَنّي على عبده العقوبةَ في الآخرة، ومن أصاب حداً فستره الله عليه وعفا عنه؛ فاللهَ أكرم من أن يعود في شيءٍ قد عفا عنه"(١).

قال الإمام الطيبي: "قوله (من أصاب حداً) أي ذنباً يوجب الحدَ، فأقيم المسبب مقام السبب. وقوله (فستر) مع قوله (وعفا عنه) معاً؛ عطف على الشرط، أي: من ستر الله عليه وتاب. فوضع غفران الله موضع التوبة إشعاراً بترجيح جانب الغفران، وأن الذنب مطلوب له، ولذلك وضع المظهر موضع المضمر في الجزاء، ووصفه بالكرم. وفيه حثّ على الستر والتوبة، وأنه أولى وأحرى من الإظهار"(٢). أهـ.

(١) سنن الترمذي: أبواب الإيمان – رقم ٢٦٢٦. وسنن ابن ماجة: كتاب الحدود – رقم ٢٦٠٤ ومسند أحمد: حديث عليّ – رقم ٧٧٥.
(٢) الكاشف: (٢٥٤٦/٨).

فالحاصل من هذا البيان أنه لو جرى الكلام على مقتضى الظاهر لقيل: "فستره الله وعفا عنه، فهو أكرم... إلخ"، لكن وضع اسم الجلالة موضع الضمير، وإسناد أفعل التفضيل إليه هو الأنسب بمقام إسدال ستر العفو من الله ﷻ على عبده العاصي، والأليق بوصفه تقدست أسماؤه بالتنزُّه عن الرجوع في شيء قد غفر فيه لذلك العاصي وعفا عنه، ولذلك أيضاً كان جواب الشرط المقترن بالفاء ههنا جملة اسمية: "فالله أكرم"، بينما كانت جملة الشرط جملة فعلية "من أصاب حداً.."؛ تنويهاً بثبوت هذه الصفة للباري سبحانه وتعالى، ودوامها أزلاً وأبداً، ففي ذلك بشرى للتائبين بانفتاح باب التوبة لهم وقبوله سبحانه لمن تاب إليه وأناب، وأنه يمنحهم كريم عفوه ورحمته، ولو استعمل الضمير فقيل "فهو أكرم.." لما اكتسى التعبير هذه الفخامة والعظمة المستفادة من الإسناد إلى اسم الجلالة، والله أعلم.

٥ – وفي حديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: يا رسول الله أخبرني عن الجهاد، فقال: "يا عبد الله بن عمرو إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً، وإن قاتلت مرائياً مكاثراً بعثك الله مرائياً مكاثراً يا عبد الله بن عمرو على أي حال قاتلت بعثك الله على تلك الحال"(١).

قال الطيبي رحمه الله: ".. التكاثر: التباري في الكثرة والتباهي بها... وأعاد "صابراً محتسباً" في الجزاء ليؤذن بالتكثير فيهما، على أن له أجراً لا يقادر قدره، أي: بعثك الله صابراً كاملاً فيه، فيوفي أجرك بغير حساب. و"محتسباً" أي مخلصاً متناهياً في إخلاصه راضياً مرضياً، ورضوان من الله أكبر. وفي عكسه قوله "بعثك الله مرائياً مكاثراً" ولترقية المعنى فيه وضع المظهر وهو قوله "الله" موضع الضمير، ونظيره قوله تعالى: (ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا)(٢) قال صاحب الكشاف: من

(١) رواه أبو داود في سننه: كتاب الجهاد – رقم ٢٥١٩. والبيهقي في السنن الكبرى برقم ١٨٥٤٨.
(٢) سورة الفرقان: ٧١.

يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح فإنه بذلك تائب إلى الله متاباً مرضياً عنده مكفراً للخطايا محصلاً للثواب، أو فإنه تائب متاباً إلى الله الذي يعرف حق التائبين، ويفعل لهم ما يستوجبون، والذي يحب التوابين ويحب المتطهرين[١]. اهـ.

فقوله "مرضياً عنده" إلى قوله "محصلاً للثواب" هو معنى التنكير في "مثايا" المعاد في الجزاء بعد الشرط. وقوله "الذي يعرف" إلى قوله "يحب التوابين" هو معنى وقوع اسم الله الأعظم الجامع لجميع الصفات في هذا المقام"[٢]. ا هـ.

وهنا يقف الشارح في هذا التفصيل عند بعض الألفاظ ليكشف عن القيمة البلاغية لأكثر من تعبير في الحديث الشريف، فمن ذلك تكرار لفظ "صابراً محتسباً" في جواب الشرط، وكذا "مرائياً مكاثراً"، ومن ذلك وضع المظهر الذي هو اسم الجلالة في قوله صلى الله عليه وسلم "بعثك الله مرائيا" موضع الضمير، واستشهد بالآية الكريمة (فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) وكلام صاحب الكشاف عليها، وهو بيان دقيق شاف للنكتة البلاغية من وضع اسم الجلالة موضع الضمير في هذا المقام، ويفهم من كلام الشارح أنه يقيس وضع المظهر – اسم الجلالة – في الحديث على وضعه في الآية الكريمة، وبناء على ذلك يمكن القول بأن التعبير باسم الجلالة في "بعثك الله" للتنبيه على أن الله عز وجل العليم بذات الصدور، الذي يعلم السرَّ وأخفى، وهو القائم على كل نفس بما كسبت؛ هو سبحانه الحقيق بأن يقدّر عمل كل عامل حقَّ قدره، وأن يجازي كل إنسان على حسب نيَّته، ويزن كل ما قدمته يدا امرئ بميزان القسط يوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً. والله أعلم.

(١) الكشاف: (١٠١/٣).
(٢) الكاشف عن حقائق السنن: (٢٦٥٨/٨).

رابعاً : وضع الماضي موضع المستقبل

والمراد به ما يكون مقتضى الظاهر فيه استعمال المضارع، فيعدل عن ذلك إلى استعمال الماضي لنكتة وغرض يرمي إلهي البليغ. قال أبو يعقوب:

"قلما يُترك المضارع في بليغ الكلام إلى الماضي المؤذن بالتحقق نظراً إلى لفظه لغير نكتة مثل ما ترى في قوله علت كلمته: (إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ)[1] ترك "يودوا" إلى لفظ الماضي إذ لم تكن تحتمل ودادتهم لكفرهم من الشبهة ما كان يحتملها كونهم إن يثقفوهم أعداء..."[2].

وقد أشار جار الله الزمخشري إلى أبرز الأغراض البلاغية من التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي – وهو تحقق الوقوع – فقال في قوله تعالى: (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ)[3]: "فإن قلت: لم قيل (ففزع) دون "فيفزع"؟ قلت: لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته، وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السماوات والأرض، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به.."[4].

ثم قال في قوله تعالى: (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)[5]: "ورود الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف"[6].

وأما حديث السكاكي عن هذا الأسلوب فقد جاء في خضم حديثه عن تقييد الفعل بأدوات الشرط الـمختلفة، وقد أشار إلى بعض نكاته بقوله: "لا يصار إليه في بليغ

---

(١) سورة الممتحنة: ٢.
(٢) المفتاح: ٣٤٦ ، ٣٤٧.
(٣) سورة النمل: ٨٧.
(٤) الكشاف: (١٦١/٣).
(٥) سورة القصص: ٢٦.
(٦) الكشاف: (١٧٢/٣).

الكلام إلا لنكتة ما، مثل توخي إبراز غير الحاصل في معرض الحاصل؛ إما لقوة الأسباب المتآخذة في وقوعه كقولك: إن اشترينا كذا، حال انعقاد الأسباب في ذلك، وإما لأن ما هو للوقوع، نحو قولك: إن متُّ. وعليه: (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ)[1]، (وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ)[2].

وكذا (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ)[3] لنزولها قبل فتح مكة.. وإما للتعريض كما في نحو: (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم)[4]، (لَئِنْ أَشْرَكْتَ)[5]... وإما للتفاؤل، وإما لإظهار الرغبة في وقوعه، وقوعه، كما تقول: إن ظفرت بحسن العاقبة فذاك، وعليه قوله تعالى: (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا)[6]، وما شاكل ذلك من لطائف الاعتبارات"[7].

وقد تبعهما الخطيب في إفادة التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي "التنبيه على تحقق وقوعه، وأن ما هو للوقوع كالواقع"، وتبعه شراح التلخيص[8].

والإمام الطيبي قد اتّبع نهج جمهور البلاغيين في هذا الفن، فنراه في كتابه التبيان[9] يردد ما قاله السكاكي في النكات التي يستعمل فيها، ويستشهد ببعض شواهده. وهو في شرحه للأحاديث الشريفة لا يخرج عن طرائقهم، بيد أنه – كما هو دأبه – يكشف عن الملابسات التي يستدعي المقام من أجلها اختيار أسلوب معين في كل تعبير خرج من مشكاة النبوة، فمما ذكره من شواهد هذا الأسلوب:

١ – ما روي عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "إذا قال المؤذن: الله أكبر، الله أكبر، فقال أحدكم: الله أكبر الله أكبر، ثم قال: أشهد أن لا إله

---

(١) سورة الأعراف: ٤٤.
(٢) سورة الأعراف: ٤٨.
(٣) سورة الفتح: ١.
(٤) سورة البقرة: ١٢٠ ، ١٤٥ ، والرعد: ٣٧.
(٥) سورة الزمر: ٦٥.
(٦) سورة النور: ٣٣.
(٧) المفتاح: ٣٥٢ ، ٣٥٣.
(٨) الإيضاح: (٩٦/٢) وشروح التلخيص (٤٧٤/١).
(٩) ينظر: التبيان: (٢٧١ – ٢٧٣).

إلا الله، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ثم قال: أشهد أن محمداً رسول الله؛ قال: أشهد أن محمداً رسول الله، ثم قال: حي على الصلاة؛ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: حي على الفلاح؛ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: الله أكبر الله أكبر؛ قال: الله أكبر الله أكبر، ثم قال: لا إله إلا الله؛ قال: لا إله إلا الله منْ قلبه دخل الجنة"(١).

قال الإمام الطيبي رحمه الله: "قوله (إذا قال المؤذن) "إذا" شرطية، وقوله "فقال" عطف على الشرط، وجزاء الشرط قوله (دخل الجنة)، والمعطوفات بـ"ثم" مقدرات بحرف الشرط والفاء، ويجوز أن يكون "فقال" جواباً للشرط، وكذا "قال" في المعطوفات، وإنما وضع الماضي موضع المستقبل لتحقق الموعود.."(٢). ا هـ .

ومحل الاستشهاد هنا قوله صلى الله عليه وسلم "دخل الجنة"، إذ كان مقتضى الظاهر التعبير بالمضارع لكون المعنى على أنه سيدخل الجنة، وذلك مستقبل، لكن وضع الماضي موضعه تنبيهاً على تحقق وقوع ما وعد الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأن ما هو للوقوع كالواقع كما قال أئمة هذا الشأن، والله أعلم.

٢ – حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "إنَّ لله تعالى تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم..." الحديث(٣).

قال الطيبي رحمه الله: "قوله (من أحصاها) فيه وجوه أحدها: معنى أحصاها: حفظها، هكذا فسره البخاري والأكثرون، ويؤيده أنه ورد في رواية في الصحيح: "من حفظها دخل الجنة"(٤).

---

(١) رواه الإمام مسلم: كتاب الصلاة – رقم ٣٨٥. وهو في سنن أبي داود: كتاب الصلاة برقم ٥٢٧. والسنن الكبرى للنسائي: برقم ٩٧٨٥.
(٢) الكاشف: (٩١٢/٣).
(٣) سنن الترمذي: أبواب الدعوات – برقم ٣٥٠٨. وشرح السنة للبغوي: رقم ١٢٥٧.
(٤) صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء: رقم ٢٦٧٧. وسنن ابن ماجة: كتاب الدعاء - ٣٨٦١.

وثانيها: أن يكون بمعنى الضبط والتفقد والرعاية، فيرجع إلى معنى ما ذكره الشارحون: من أتى عليها حصراً وتعداداً وعلماً وإيماناً، فدعا الله بها استحق بذلك دخول الجنة. وذكر الجزاء بلفظ الماضي تحقيقاً"(١). ا هـ.

ومراده بالجزاء ههنا جملة جواب الشرط قوله صلى الله عليه وسلم "دخل الجنة" وهو مما يقع في المستقبل، فوضع فيه الماضي موضع المستقبل تنبيهاً على تحقق وقوع ما وعد الله به ورسوله ﷺ ، لأن الله سبحانه لا يخلف الميعاد، والنبي صلى الله عليه وسلم هو المبلغ عن ربه، ويلاحظ من مجيء هذا الموعود به جواباً للشرط، ومن تعليقه على فعل الشرط "من أحصاها" التنبيه على فضيلة هذا العمل، وعظم شأنه، إذ قد استحق صاحبه الفوز العظيم بدخول جنة عرضها السماوات والأرض، وكذا الشأن في فضيلة العمل الذي اشتمل عليه الحديث السابق، ويستتبع ذلك الندب إلى إحصاء أسماء الله عز وجل؛ سواء كان ذلك بمعنى حفظها أو بمعنى ضبطها وتعلمها والإيمان بها على نحو ما ذكر الشارح، إذ كان تحقق الوعد بدخول الجنة مما يترتب على ذلك، والله أعلم.

٣ – وفي حديث طويل عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: "خرج النبي ﷺ في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلّد الهدي وأشعر، وأحرم منها بعمرة...." إلى قوله: "ثم قال: والذي نفسي بيده لا يسألوني خطّة يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها.." الحديث بطوله(٢).

قال الطيبي رحمه الله: "قوله (خطة): الخطة: الحال والأمر والخطب. المعنى: لا يسألوني خصلة يريدو ن به تعظيم ما عظمه الله وحرَّم هتك حرمته إلا أسعفتهم إليها، ووضع الماضي موضع المضارع مبالغة في الإسعاف"(٣). ا هـ.

(١) الكاشف: (١٧٦٧/٦).
(٢) صحيح البخاري: كتاب الشروط – رقم ٢٧٣١. ومسند أحمد: حديث المسور بن مخرمة ١٨٩٢٨.
(٣) الكاشف: (٢٧٨٤/٩).

القصة الواردة في هذا الحديث كانت عام الحديبية، وقوله صلى الله عليه وسلم "والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة.." كانت تمهيداً للمعاهدة التي وقعت في صلح الحديبية بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين مشركي مكة، وتراكيب العبارة تتعاضد على تعظيم حرمات الله عز وجل، يظهر ذلك جلياً في القسم الذي صدّرت به، ثم في النفي والاستثناء، ثم في قوله "حرمات الله" بإضافتها إلى اسم الجلالة مع ما في ذلك من التفخيم والتنزيه، فكان من الملائم للمقام أن يعبر عن المستقبل بالماضي في قوله "أعطيتهم" تحقيقاً للوفاء بكل ميثاق فيه تعظيم لحرمات الله، ومبالغة في الإسعاف بشروط معاهدة من شأنها تعظيم ما عظّمه الله سبحانه وتعالى.

٤ – وفي حديث آخر عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: "صالح النبي ﷺ المشركين يوم الحديبية على ثلاثة أشياء: على أن من أتاه من المشركين ردَّه إليهم، ومن أتاهم من المسلمين لم يردُّوه، وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم بها ثلاثة أيام، ولا يدخلها إلا بجلُبان السلاح والسيف والقوس ونحوه..."[(١)].

قال الطيبي رحمه الله: "قوله (لم يردُّوه) فإن قلت: كيف أتى بالجزاء هنا بلفظ المضارع وفيما سبق بالماضي؟ وما فائدته عند علماء المعاني؟ قلت: اهتمامهم بشأن رد المسلمين من أتاهم من المشركين أشد وأولى من ردهم المسلمين إليهم"[(٢)].

يوجه الشارح سؤالاً هنا عن فائدة التعبير بالماضي الموضوع موضع المضارع في قوله "ردَّه"، ثم التعبير بالمضارع في الجملة المعطوفة عليها، ويجيب ببيان النكتة في ذلك الناشئة عن ملابسات الأحوال التي أحاطت بالخبر، والقصة التي جرى فيها

(١) صحيح البخاري: كتاب الصلح – رقم ٢٧٠٠. وشرح السنة للبغوي: حديث ٢٧٤٩. والجُلُبّان: جراب من الأدم يوضع فيه السيف مغموداً ويطرح فيه الراكب سوطه وأداته ويعلقه في آخرة الكور أو واسطته واشتقاقه من الجُلْبَة وهى الجلدة التى تجعل على القتب. قال الطيبيّ: ولما كان من ديدن العرب أن لا يفارقوا السلاح في السلم والحرب شرطوا عليهم أن لا يجردوا السلاح ولا يدخلها كاشف السلاح متأهباً للحرب. (النهاية في غريب الحديث: جلب. والكاشف: ٢٧٨٨/٩).
(٢) الكاشف: (٢٧٨٧/٩).

الصلح، فبيَّن أن التعبير بالماضي في الشرط الأول من شروط الصلح "من أتاه من المشركين ردَّه إليهم" وهو يختص بمن يهاجر منهم إلى النبيِ صلى الله عليه وسلم، والتعبير بالمضارع في قوله "ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه"؛ إنما اقتضاه حالهم التي تتمثل في اهتمامهم وعنايتهم بشأن رد المسلمين لمن أتاهم من المشركين، فلفظ "ردَّه إليهم" بالفعل الماضي دال على تحقق وقوع الرد، وذلك لشدة رغبتهم في وقوعه فجعل كالذي وقع، وقد يكون ما حملهم على الحرص أن يردُّوا إليهم من خرج من عندهم من المشركين وتوجه إلى المسلمين يريد دخول الإسلام إنما هي الحمية والعصبية التي حكى الله عز وجل عنها في قوله سبحانه: (إِذْ جعل الَّذين كفروا في قُلُوبِهِم الْحميَّةَ حميَّةَ الْجاهليَّة فأَنْزل اللَّه سكينته على رسولِه وعلى الْمؤْمنين)(١). والله أعلم.

٥ – وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : "من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبةً من السحر، زاد ما زاد"(٢).

قال الإمام الطيبي: "قوله (من اقتبس علماً) نكّر "علْماً" للتقليل، ومن ثمّة ضمّ الاقتباس لأنه فيه معنى القلة. و"من النجوم" صفة "علماً" وفيه مبالغة، وفاعل "زاد" الشعبة، ذكرها باعتبار السحر. و(زاد ما زاد) جملة مستأنفة على سبيل التقرير والتأكيد، أي: يزيد السحر ما يزيد الاقتباس، فوضع الماضي موضع المضارع للتحقيق"(٣). ا هـ.

ومحل الاستشهاد – كما جاء في آخر هذا التعليق – هو قوله ﷺ : "زاد ما زاد"، وضح الشارح أصل معنى هذه العبارة بقوله: "أي يزيد السحر ما يزيد الاقتباس"، لأن

---

(١) سورة الفتح: ٢٦.
(٢) سنن أبي داود: كتاب الطب – رقم ٣٩٠٥. وسنن ابن ماجة: كتاب الأدب رقم ٣٧٢٦.
(٣) الكاشف: (٢٩٩١/٩).

تنجيم المنجمين مشبه بالسحر، فاقتباس شيء من تنجيمهم كاقتباس شيء من السحر، ومعلوم أن السحر هو أحد الموبقات التي حذر الشرع الشريف منها، فيفهم من ذلك أن الأخذ بعلم من المنجمين كالأخذ بشعبة من السحر في الحرمة والإثم، ثم يترتب على هذا أن الزيادة من التلقي عنهم وتصديقهم يعتبر كالزيادة من السحر في كون كل منهما ذنباً عظيماً، ولذا كان أصل التعبير "يزيد السحر ما يزيد الاقتباس" كما بيَّنه، لكن لفظ الحديث وضع الماضي موضع المضارع: "زاد ما زاد"، وفي ذلك تنبيه على تعاظم الإثم وتفاقم الجرم كلما زاد أخذ المرء عن المنجمين وعمله بمقتضى عملهم، وقد أفاد التعبير بالاقتباس معنى القلة وكذا التنكير للفظ "علم" – كما أشار العلاّمة الطيبي رحمه الله – وانبنى عليه التعبير بالزيادة بعده ليحصل التدرج من القلة إلى الزيادة، وعدل فيه عن المضارع إلى الماضي ليدل على تحقق وقوع من زاد في التنجيم أو استزاد منه في الضلال والإثم، وتلاءم الكلام مع المقام أتم الملاءمة ليحصل به شدة التحذير من سوء الاعتماد على أباطيل المنجمين.

٦ – وروي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال: "قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً، فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظَه، ونَسيه من نَسيه"(١).

قال الإمام الطيبي: "قوله (حتى دخل أهل الجنة) غاية "أخبرنا" أي: أخبرنا مبتدئاً من بدء الخلق حتى انتهى إلى وصول أهل الجنة. ووضع الماضي موضع المضارع للتحقيق المستفاد من قول الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم"(٢).

ومعنى كلامه رحمه الله أن أصل التعبير كان بأن يقال: حتى يدخل أهل الجنة منازلهم. بصيغة المضارع، ولكن عبر بالماضي "حتى دخل.." دلالة على تحقق وقوع

(١) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق – رقم ٣١٩٢.
(٢) الكاشف: (٣٦٠١/١١).

ذلك، لأن ما هو محقق الوقوع كالواقع، من حيث كان المخبر به هو رسول الله صلى الله عليه وسلم المبلغ عن ربه عز وجل (وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى)[١] . والعدول عن مقتضى الظاهر هنا يتلاءم مع المقام أتم الملاءمة، إذ الحديث يتناول فيه الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أموراً غيبية منها ما يتعلق بالعصور الماضية منذ بدء الخلق، ومنها ما يتعلق بما سوف يقع وما سيكون إليه المصير من جنة لأهل الإيمان ونار لأهل الكفر، وتلك أمور إذا أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي واقعة لا محالة، والمستقبل فيها كالماضي في تحقق وقوعه، ولذا ناسب هنا أن يوضع الماضي موضع المضارع.

(١) سورة النجم: ٣ ، ٤.

خامساً : وضع المضارع موضع الماضي

والمراد به: أن يكون مقتضى الظاهر استعمال الفعل الماضي، فيعدل عنه إلى استعمال الفعل المضارع مكانه لنكتة يقتضيها المقام. وقد جاء هذا الأسلوب على أبلغ ما يكون في كتاب الله في غير موضع، ولذا وقف عنده البلاغيون واستخرجوا فوائده وسر بلاغته.

وأحسن من أماط اللثام عن لطف هذا الأسلوب وحسن موقعه الإمام الزمخشري حيث يقول في قول الله عز وجل: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)[1]: "فإن قلت: لم جاء (فتثير) على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت: ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك، كما قال تأبط شرا:

بأني قد لقيت الغول تهوي بسَهْبٍ كالصحيفة صحصحانِ[2]
فأضرِبُها بلا دهشٍ فخَرَّتْ صريعاً لليدين وللجران

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول كأنه يبصرهم إياها، ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجيب من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدة . وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها لمَّا كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل: (فسقنا)، و(أحيينا) معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه"[3]. ا هـ.

---

(١) سورة فاطر: ٩.
(٢) السهب: الفلاة. صحصحان: أرض جرداء مستوية ليس بها شجر ولا قرار للماء. (لسان العرب: سهب، صحح).
(٣) الكشاف: (٣/٣٠١، ٣٠٢).

وفي موضع آخر ينوه فيه بالعدول عن الماضي إلى المضارع في أحد وجهين يحمل عليهما قوله تعالى: (استكبرتم ففريقًا كذَّبتم وفريقًا تقتلون)[١] ويعلل لطف موقعه باستحضار الصورة الفظيعة لقتل الأنبياء، فيقول رحمه الله: "فإن قلت: هلاّ قيل: وفريقاً قتلتم؟ قلت: هو على وجهين: أن تراد الحال الماضية لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب.." [٢]. ا هـ.

وقد تكلم السكاكي أيضاً على هذا الأسلوب في سياق حديثه عن تقييد الفعل بأدوات الشرط، فعند ذكره (لو) تطرق إلى الاستشهاد بالآيات التي ورد فيها فعل الشرط بعد (لو) بصيغة المضارع نحو قوله تعالى: (ولو ترى إذ وقفوا على النّار)[٣]. وقوله (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم)[٤] وقوله (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم)[٥]، فذكر أنها من تنزيل المستقبل منزلة الماضي المعلوم لصدوره عمن لا خلاف في إخباره، وذلك أن (لو) تقتضي في أصل استعمالها الدخول على جملتين فعليتين فعلهما ماضٍ، فنزّل المضارع في قوله (ولو ترى) منزلة: "لو رأيت" على نحو تنزيل "يود" منزلة "ودَّ" في قوله تعالى: (ربما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين)[٦] ثم قال أبو يعقوب: "ولك أن تردّ الغرض من لفظ "ترى"، و"يود" إلى استحضار صورة المجرمين ناكسي الرءوس، قائلين لما يقولون، وصورة الظالمين موقوفين عند ربهم متقاولين بتلك المقاولات واستحضار صورة ودادة الكافرين لو أسلموا.. كما في قوله: (والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه)[٧] الآية". ثم ذكر ذكر نحواً مما قاله الزمخشري في الآية[٨].

---

(١) سورة البقرة: ٨٧.
(٢) الكشاف: (٢٩٥/١).
(٣) سورة الأنعام: ٢٧.
(٤) سورة السجدة: ١٢.
(٥) .سورة سبأ: ٣١
(٦) سورة الحجر: ٢.
(٧) سورة فاطر: ٩.
(٨) المفتاح: (٣٥٤ ، ٣٥٥).

وقد تبعهما الخطيب فيما ذكراه، ومن بعده شراح التلخيص[1].

وإذا تصفحنا ما جاء من هذا الأسلوب في الأحاديث الشريفة التي تناولها الإمام الطيبي بالشرح والتحليل، فإننا نجده في عرضه للنكتة البلاغية في العدول عن الماضي إلى المضارع يترسم خطى البلاغيين في حديثهم عن سرِه البلاغي وفائدته على نحو ما سبقت الإشارة إليه آنفاً، مع ربطه ذلك بمقتضى المقام الذي ورد فيه البيان النبوي الشريف على أتم ما يصاغ الكلام البشري في أعلى طبقاته من رعاية المناسبة وإصابة الغرض.

ومما جاء في كتابه من ذلك :

١ – ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : "ثلاثة على كثبان المسك يوم القيامة: عبدٌ أدَّى حقَّ الله وحق مولاه، ورجل أمَّ قوماً وهم به راضون، ورجل ينادي بالصلوات الخمس كل يوم وليلة"[2].

قال الطيبي رحمه الله: "عبر عن الثواب بكثبان المسك لرفعته وظهور فرحه، وروح الناس من رائحته، لتناسب حال هؤلاء الثلاثة، فإن فائدة أعمالهم متجاوزة إلى الغير. وصف المؤذن بالفعل المضارع تصويراً لفعله، واستحضاراً له في ذهن السامع استعجاباً منه"[3]. ا هـ.

نلاحظ أنه مع تناسب حال الثلاثة المذكورين – وهم ثلاثة أصناف من الناس – من حيث الشرف والمنزلة عند الله عز وجل؛ فقد وصف كل من الأول والثاني بجملة فعلية فعلها ماضٍ: "عبدٌ أدَّى.."، "ورجل أمَّ.."، فلما بلغ الوصف الثالث عدل عن الماضي إلى المضارع: "ورجل ينادي بالصلوات الخمس.."، وبيَّن الشارح فائدة ذلك

(١) ينظر: الإيضاح (١٢٦/٢ ، ١٢٧) وشروح التلخيص (٨٣/٢ – ٨٩).
(٢) رواه الترمذي في أبواب البر والصلة – رقم ١٩٨٦. وهو في مسند أحمد: من حديث عبد الله بن عمر – رقم ٤٧٩٩.
والكثبان: جمع كثيب: وهو الرمل المستطيل المحدودب. (النهاية في غريب الحديث: كثب).
(٣) الكاشف: (٩١٦/٣ ، ٩١٧).

بأنه تصوير لعمل المؤذن واستحضار لتلك المهمة الجليلة في أذهان السامعين، فالعدول إلى صيغة المضارع فيه تنويه بشأن المؤذنين، لأن استحضار صورة عملهم تشريف وإشادة بهذا العمل وتنبيه لمن قد يغفل عن هذا الشأن ببيان قيمته، حيث يتوالى نفعه للناس ويتتابع كل يوم وليلة، فالتعبير بالمضارع مما يقتضيه المقام لذلك، وليتلاءم مع ما قبله ومع التوشيع الوارد في صدر الحديث "ثلاثة على كثبان المسك.." والله أعلم.

٢ – وما روي عن أبي محذورة قال: ألقى عليَّ رسول الله ﷺ التأذين هو بنفسه، فقال: "قل: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، ثم تعود فتقول: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله. حي على الصلاة، حي على الصلاة،... الحديث"(١).

قال الإمام الطيبي: "قوله (ألقى) أي: لقنني كل كلمة من هذه الكلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، يعنى بذلك أبو محذورة تصوير تلك الحالة واستحضارها عند السامع تقريراً وتأكيداً، ولهذه الدقيقة عدل عن لفظ الماضي إلى المضارع في قوله "ثم تعود فتقول: أشهد أن لا إله إلا الله – مرتين – وأشهد أن محمداً رسول الله – مرتين – من غير جهر، ثم ارفع صوتك وقُل كلَّ واحدة من هاتين الكلمتين مرتين. ويسمى رفع الصوت بالمرتين اللتين يرفع بهما صوته ترجيعاً، ولا ترجيع في كلمات الأذان إلا في كلمتي الشهادة.. بعد قوله بالخفض مرتين..."(٢). ا هـ.

وواضح من شرحه رحمه الله أن التعبير بالمضارع في الفعلين "تعود فتقول" مطابق لمقتضى الحال، إذ هو في مقام تعليم الأذان وتلقينه صلى الله عليه وسلم

(١) سنن أبي داود: كتاب الصلاة – رقم ٥٠٣. وسنن النسائي: كتاب الآذان رقم ٦٣٢. وسنن ابن ماجة: كتاب الأذان – رقم ٧٠٨.
(٢) الكاشف: (٩٠٤/٣).

كلماته لأبي محذورة ولمن تبع سنته المشرفة، والنكتة في التعبير به كما ذكر هو تصوير حالة تكرير لفظ الشهادتين سراً أو بصوت منخفض قبل الجهر بهما، وهو ما يسمى "ترجيعاً" على نحو ما بيَّنه الشارح، واستحضار تلك الحالة عند السامع يعد تقريراً لها وإبرازاً لصورتها، وهذا مما يتطلبه مقام التعليم والتلقين ليثبت عند المتعلم ويستقر في ذهنه. وقد يجوز أن نقول إن خلاف مقتضى الظاهر هنا إنما هو بالعدول عن صيغة الأمر إلى صيغة المضارع، لأن الحديث مستهلٌّ بقوله صلى الله عليه وسلم: "قُل: الله أكبر" ومقتضى الظاهر أن يعطف عليه بأن يقال: "ثم عد فقُل"، لكنه عبر عنه بلفظ الخبر "ثم تعود فتقول" تنبيهاً على المبادرة إلى الامتثال، وكأن المخاطب قد تلبس بالفعل حرصاً على أن يمتثل الأمر، ورغبة في حصول ذلك الفعل منه، فتكون الجملتان إنشائيتين معنى خبريتين لفظاً، ولذا صح عطفهما على فعل الأمر الذي في صدر الحديث، والتعبير بالمضارع فيهما مع ذلك يضفي عليهما مع ذلك ما ذكره الشارح من التصوير والاستحضار، والله أعلم.

٣ – وما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يُهوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه؛ كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسُّون فيها من جدعاء؟ ثم يقول: (فِطْرَةَ اللَّه الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْديلَ لخَلْقِ اللَّه ذَلكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)[(١)]..."[(٢)].

قال شرف الدين الطيبي في التعبير بلفظ "ثم يقول": ".. والظاهر "ثم قرأ" فعدل إلى القول، وأتى بالمضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً له في ذهن السامع، كأنه يسمع منه عليه الصلاة والسلام، إلا أن قوله: (لَا تَبْديلَ لخَلْقِ اللَّه) لا يجوز أن

(١) سورة الروم: ٣٠.
(٢) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن – رقم ٤٧٧٥. وكتاب الجنائز – رقم ١٣٥٨. وصحيح مسلم: كتاب القدر – رقم ٢٦٥٨..

يكون إخباراً محضاً لحصول التبديل، بل يؤول بأن يقال: من شأنه أن لا يبدل، أو يقال: إن الخبر بمعنى النهي.."[١]. ا هـ.

فقد بيَّن الشارح أن مقتضى الظاهر أن يقال: ثم قرأ: (فِطْرَةَ اللَّهِ..) الآية. لكنه عدل عن الماضي "قرأ" إلى المضارع في عبارته "ثم يقول" – وهو من كلام الصحابي راوي الحديث – والسر في بلاغة التعبير بالمضارع هو ما ذكر من حكاية الحال الماضية التي شهدها سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه حين سمع الحديث من الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، ومن ثمَّ جعل يستحضر تلك الحال وكأنها ماثلة قائمة أمام عينيه وهو يحدّث رضي الله عنه بهذا الحديث، وكأنه – وهو يروي لمن حضره – يسمع منه ﷺ ، ولا يخفى ما لذلك من الأثر في نفوس السامعين حين تحضرهم هذه الصورة بعد مرور زمن على وقوعها، ثم إن ذلك يأتي بعد ما جاء في الحديث الشريف من التشبيه التمثيلي الذي يقرِر حال المشبه ويمكّنه في الأذهان، وهو سلامة الفطرة التي يخلق الله سبحانه عليها كل إنسان، فيولد سوياً على أتم الاستعداد للإيمان بخالقه، ولكن تيارات الضلال من حوله هي التي تنحرف به عن سواء السبيل، فيتردى إلى أسفل سافلين.

فتراكيب النص الشريف كلها تتلاءم وتتعاضد مع قول الصحابي الجليل "ثم يقول.."؛ لتؤدي إلى تقرير تلك الحال وتصويرها وتأكيدها، مع أخذنا بعين الاعتبار ما ذكره الشارح من التأويل الذي حمل عليه نص الآية الكريمة. والله أعلم.

(١) الكاشف: (٥٤٦/٢).

٤ – وما روي عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: "صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً الصبح، فلما سلَّم قال: أشاهدٌ فلان؟ قالوا: لا. قال: أشاهد فلان؟ قالوا: لا. قال: "إن هاتين الصلاتين أثقل الصلوات على المنافقين، ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبواً على الرُّكَب، وإن الصفَّ الأول على مثل صف الملائكة، ولو علمتم ما فضيلته لابتدرتموه، وإن صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل وما كَثر فهو أحبُّ إلى الله"(١).

قال الطيبي رحمه الله: "قوله (إن هاتين الصلاتين) أي الصبح والعشاء، لأن مبدأ النوم العشاء ومنتهاه الصبح، فإن لذيذ الكرى عند الصباح يكون، والمنافقون إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى... فإن قلت: ما الفرق بين قوله "لو تعلمون ما فيهما"، وقوله بعده "لو علمتم ما فضيلته"؟ قلت: الدلالة على أن حضور الجماعة أفضل وأكمل من اختيار الصف الأول، لأن "لو" يستدعي الماضي، وإيثار المضارع عليه يشعر بالاستمرار؛ لا سيما لم يصرح بالفضيلة، بل أبهمها ليدل على أن إبهامها لا يدخل تحت الوصف، بيَّن أولاً فضيلة الجماعة، ثم نزل منه إلى بيان فضيلة الصف الأول، ثم إلى بيان كثرة الجماعة"(٢). ا هـ.

يشير هنا – رحمه الله – إلى أن الأصل دخول (لو) على الفعل الماضي كما تقرر في علم النحو، وقد تكلم البلاغيون على وضع المضارع بعد (لو) موضع الماضي، وتقدمت الإشارة إلى ذلك في صدر الكلام على هذا الأسلوب، والإلماح إلى بعض الآيات التي جاء فيها لفظ (لو ترى) مكان "لو رأيت". قال السكاكي رحمه الله بعد استشهاده بالآيات الكريمات:

(١) رواه أبو داود في سننه: كتاب الصلاة – رقم ٥٥٤.
(٢) الكاشف: (١١٣٢/٤).

"واستلزم في مثل قولك "لو تحسن إليَّ لشكرت" القصد بـ"تحسن" إلى تصويره أن إحسانه مستمر الامتناع فيما مضى وقتاً فوقتاً على نحو قصد الاستمرار حالاً فحالاً بـ(يستهزئ) في قوله عز اسمه (اللَّه يستهزئ بهم) بعد قوله (إنَّا معكم إنَّما نحن مستهزئون)(١)، وبـ(يكسبون) في قوله (فويل لهم ممَّا كتبت أيديهم وويل لهم ممَّا يكسبون)(٢).. ا هـ(٣).

وعليه فالتعبير بالمضارع في قوله ﷺ "ولو تعلمون ما فيهما" يُشعر بالاستمرار – كما قال الطيبي – أي استمرار امتناع العلم بما في حضور الجماعة في الصلاتين من الفضيلة والمثوبة، والذي انبنى عليه امتناع إتيانهما حبواً على الركب، ولذا أُبهمت فضيلة ذلك تفخيماً لها كما بيَّنه بقوله "ليدل على أن إبهامها لا يدخل تحت الوصف" يعني أنها لا يحيط الوصف بها لعظمتها، وبذلك فرَّق الشارح بين التعبير بالمضارع فيما يتعلق بفضل صلاة الجماعة في صلاتي العشاء والفجر، والتعبير بالماضي فيما يتعلق بفضيلة الصف الأول، وبه استدل على أن الأولى أفضل وأكمل من الثانية والله أعلم.

٥ – وروي عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: "لأرمقنَّ صلاةً رسول الله ﷺ الليلة"، فصلى ركعتين خفيفتين، ثم صلى ركعتين طويلتين طويلتين طويلتين، ثم صلَّى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما..." إلى قوله: "فذلك ثلاث عشرة ركعة"(٤).

قال الإمام الطيبي: "قوله "لأرمقن" الرمق" النظر إلى الشيء شزراً نظر العداوة، فاستعير ههنا لمطلق النظر، كما استعير "المرسن" وهو أنف فيه رسن لمطلق الأنف. عدل عن الماضي إلى المضارع استحضاراً لتلك الحالة الماضية ليقررها في ذهن

(١) سورة البقرة: ١٤ ، ١٥.
(٢) سورة البقرة: ٧٩.
(٣) المفتاح: ٣٥٤.
(٤) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين – رقم ٧٦٥. وسنن أبي داود: أبواب قيام الليل – رقم ١٣٦٦. وسنن ابن ماجة: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها – رقم ١٣٦٢.

السامع أبلغ تقرير، ويشهد بذلك عنايته بالمؤكدات المتعددة، ذكر "طويلتين" ثلاث مرات إرادة لغاية الطول وانتهائه..."[1]. ا. هـ.

ونفهم من هذا التحليل لتعبير الصحابي رضي الله عنه "لأرمقن" أن ظاهر الحال كان يقتضي أن يقول: رمقْتُ صلاة رسول الله ﷺ ، بمعنى: نظرت إليها نظر تعلُّم وتلقٍ عنه لسنته صلى الله عليه وسلم في صلاة النافلة من الليل، لكنه عدل عن تلك الصيغة التي يقتضيها الظاهر إلى التعبير بالمضارع "لأرمقن" المؤكدة باللام الموطئة للقسم ونون التوكيد؛ مما يدل على شدة حرصه رضي الله عنه، وتمام إقباله وشحذه همته لتعلّم صلاة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم من الليل، ثم هو يروي ما رآه لمن بعده للتأسي والاقتداء بفعله ﷺ ، وصيغة الأفعال الواردة بعد: "فصلى.. ثم صلى.. ثم صلى... ثم أوتر" كلها بالفعل الماضي على نحو مغايرٍ لما جاء في صدر الحديث "لأرمقن" الذي بيَّن الشارح فيه نكتة العدول إلى المضارع بأنها استحضار للحالة الماضية التي كانت من الصحابي الجليل من نظره وتتبعه وملاحظته لهدي سيد الخلق ﷺ ؛ لتقرير تلك الحالة أبلغ تقرير في أذهان السامعين، بدليل المؤكدات المتعددة.

٦ – عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركاً أو من يقتل مؤمناً متعمداً"[2].

قال الطيبي في أثناء شرحه للحديث: "... وبيانه أن قوله تعالى (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً)[3] دلَّ على أن قتل المؤمن ليس من شأن المؤمن، ولا يستقيم منه ولا يصح له ذلك، فإنه إن فعل خرج عن أن يقال إنه مؤمن، لأن "كان" هنا نحو

(١) الكاشف: (١١٨٥/٤).
(٢) سنن أبي داود: كتاب الفتن والملاحم – رقم ٤٢٧٠. وسنن النسائي: كتاب تحريم الدم – رقم ٣٩٨٤. ومسند أحمد: من حديث معاوية – رقم ١٦٩٠٧ – بألفاظ متقاربة.
(٣) سورة النساء: ٩٢.

"كان" في قوله تعالى: (مَا كَانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ)[١]، والمعنى: فلم يصح ولم يستقم، وقد نصَّ على هذا في الكَشَاف. ثم استثنى من هذا العام قتل الخطأ تأكيداً ومبالغة، أي: لا يصح ولا يستقيم إلا في هذه الحالة، وهذه الحالة منافية لقتل العمد، فإذاً لا يصح منه قتل العمد ألبته، ثم ذيَّل هذه المبالغة تغليظاً وتشديداً بقوله: (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا)[٢]. يعني: كيف يستقيم القتلَ من المؤمنَ عمداً، وإنه من شأن الكفار الذين جزاؤهم خلود في النار وحلول غضب الله ولعنه عليهم؟...

والحق أنه إن صدر عن المؤمن مثل هذا الذنب فمات ولم يتب فحكمه إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه بقدر ما يشاء ثم يخرجه إلى الجنة. فإن قلت: لم خصَّ إحدى القرينتين يعني "مات" بالماضي، والأخرى بالمضارع؟ قلت: تقرر عند علماء المعاني أن نحو "فلان يقْرِي الضيف ويحمي الحريم" يفيد الاستمرار، وأن ذلك من شأنه ودأبه، وقد سبق آنفاً أن قتل العمد من شأن الكفار ودأبهم، وليس من شأن المؤمن، فلذلك كان بالمضارع أجدر"[٣]. ا هـ.

وهنا يؤسس الشارح رحمه الله سر بلاغة التعبير في الحديث بالبناء على ما جاء في الكتاب العزيز مما يتعلق بالمعنى نفسه ويشترك مع عبارة الحديث في بعض ألفاظها، ويتمثل الغرض في كل منهما في بيان عظم جرم قتل المؤمن وبشاعة ذنب من يتعمد فعل ذلك، وبخاصة في آية قتل العمد، حتى قال الزمخشري رحمه الله: "هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ"[٤].

وأول ما أسس عليه الشارح كلامه قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا

(١) سورة مريم: ٣٥.
(٢) سورة النساء: ٩٣.
(٣) الكاشف: (٢٤٦٦/٨).
(٤) الكشاف: (٥٥٤/١).

إِلا خَطَأً)[1]، وأن دلالة هذا التركيب أنه: ليس من شأن المؤمن ولا يصح منه فعل ذلك. وقد استفاد من قول صاحب الكشاف: "(وما كان لمؤمن): وما صحَّ له، ولا استقام، ولا لاق بحاله، كقوله (وما كان لنبي أن يغلَّ)[2]، (وما يكون لنا أن نعود فيها)[3]..." ا هـ[4].

ومن هذا المنطلق وحيث كانت تلك الجريمة النكراء التي تنتهك فيها حرمة هي أشد عند الله من حرمة الكعبة المشرفة، فلا تليق بحال مؤمن، فقد قرَّر الإمام الطيبي في تعليله للتعبير بالمضارع في البيان النبوي هنا أن قتل المؤمن عمداً إنما هو من شأن الكفار ودأبهم، وليس من شأن المؤمن، ومن ثم أفاد المضارع الاستمرار وذلك نظير قولهم "فلان يقري الضيف ويحمي الحريم" بصيغة المضارع الدالة على استمرار حدوث القري والحماية منه لما كان ذلك من شأنه ودأبه. هذا حاصل كلامه رحمه الله، ولعل مما يؤيد هذا التوجيه ما جاء في عبارة الحديث من عطف جملة "من يقتل مؤمناً متعمداً" بـ"أو" على جملة "من مات مشركاً" فكأنهما صارا إلى مصيرٍ واحد لدخولهما جميعاً في الاستثناء بـ"إلا".

وأرى – والله أعلم – أن العدول عن الماضي إلى المضارع وقع في هذا المقام لاستحضار الصورة الفظيعة لقتل المؤمن عمداً، وتصوير بشاعتها في النفوس، على نحو ما ذكر الزمخشري رحمه الله في التعبير بالمضارع في قوله تعالى (فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ)[5]، وسبق ذكر كلامه عليه في مطلع هذا المبحث.

٧ – وعن أنس رضي الله عنه قال: "كان النبي ﷺ إذا قال: "سمع الله لمن حمده" قام حتى نقول: قد أوهم، ثم يسجد ويقعد بين السجدتين حتى نقول: قد أوهم"[6].

(١) سورة النساء: ٩٢.
(٢) سورة آل عمران: ١٦١.
(٣) سورة الأعراف: ٨٩.
(٤) الكشاف: (٥٥٢/١).
(٥) سورة القرة: ٨٧.
(٦) صحيح مسلم: كتاب الصلاة – رقم ٤٧٣. وسنن أبي داود: تفريع أبواب استفتاح الصلاة – رقم ٨٥٣.

قال الإمام الطيبي: "قوله (حتى نقول) نصب "نقول" بـ"حتى" وهو الأكثر ومنهم من لا يعمل "حتى" إذا حسن (فَعل) في موضع (يفْعل) كما يحسن في هذا الحديث. وأكثر الرواة على ما علمنا يرويه بالنصب، وكان تركه من طريق المعنى أتم وأبلغ... أقول: إن المضارع إذا عبر به عن حكاية الحال الماضية لا يحسن فيه الإعمال، وإلا فيحسن، وهذا الحديث من القبيل الأول بدليل قوله "قام"، وفيه بحث لما ورد في التنزيل: (مسَّتْهم الْبأْساء والضَّرَّاء وزُلْزِلُوا حتَّى يقُول الرَّسول)[١] أي: إلى الغاية التي قال فيها الرسول: متى نصر الله. وفائدة وضع المضارع موضع الماضي في مثل هذا المقام استحضار تلك الحالة في ذهن السامع ليتعجب لها"[٢]. ا هـ.

وعند تأمل النص المذكور بين يدي شرحه نجد أن الجمل الفعلية فيه جاءت أولاً بصيغة الماضي: "كان النبي.. إذا قال.. قام"، ثم عطف عليها بصيغة المضارع "حتى نقول.. ثم يسجد.. ويقعد.."، وكان مقتضى الظاهر أن يعطف على الأفعال الماضية بأفعال ماضية، لكن عدل عنها إلى التعبير بالمضارع للنكتة التي ذكرها الشارح، أي لاستحضار السامع لتلك الحالة في ذهنه – أعني الحالة المعبر عنها بالمضارع "نقول" وما بعده من الأفعال المضارعة، وليتمثلها حاضرة نصب عينيه، لأن ذلك هو الأنفع له في مقام تعلم كيفية صلاته عليه الصلاة والسلام، وذلك أدنى أن يأتي بأفعال الصلاة كما أخذها عنه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم.

وقد وقف الشارح على عبارة "حتى نقول" مبيناً أنه كان يمكن التعبير فيها بالماضي لأنه لحكاية الحال الماضية بدليل عطفه على "قام"، وأشار إلى الحكم الإعرابي الذي يقتضيه المضارع في هذا الموضع، وهو أنه لا يحسن نصبه، لأن نصبه بعد "حتى" مشروط بكونه للمستقبل، ثم تطرَّقت به هذه المسألة إلى بحثها في

ومسند أحمد: حديث أنس بن مالك – رقم ١٣١٠٤..

(١) سورة البقرة: ٢١٤.

(٢) الكاشف: (١٠١٣/٣ ، ١٠١٤).

قوله تعالى: (حتَّى يقُول الرَّسول)[١] الآية، حيث فسره صاحب الكشاف بقوله: "إلى الغاية حتى قال الرسول ومن معه فيها: متى نصر الله.."[٢] ثم قال: "وقرئ (حتى يقول) بالنصب على إضمار "أن" ومعنى الاستقبال لأن "أن" علَم له، وبالرفع على أنه في معنى الحال، كقولك: شرِبت الإبل حتى يجيء البعير يجر بطنه. إلا أنها حال ماضية محكية"[٣]. ا هـ.

فلما كانت "أن" الناصبة للمضارع بعد "حتى" لا يصح تقديرها إلا مع المستقبل لأنها للاستقبال بيَّن الشارح ههنا أن النصب لا يحسن في "حتى نقول" وإن كان قد روي. وقد ذهب الشهاب الخفاجي في هذه المسألة مذهباً سديداً لعله ينحل به هذا الإشكال، حيث ذكر أن حكاية الحال على ضربين: إما بحسب كونه حالاً فيرفع المضارع، وإما بحسب كونه مستقبلاً فينصب، فقال في نحو قولهم "سرت حتى أدخل البلد".

"إن كان ماضياً فتحكيه، ثم حكايتك له إما أن تكون بحسب كونه حالاً؛ بأن يقدر أنه حال فترفعه على حكاية هذه الحال، وإما أن تكون بحسب كونه مستقبلاً فتنصبه على حكاية الحال المستقبلة، فيقال في الرفع والنصب إنه على حكاية الحال بمعنيين مختلفين"[٤]. ا هـ.

٨ – وكذلك الشأن فيما روي عن جابر رضي الله عنه قال: "كنت أصلى الظهر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فآخذُ قبضةً من الحصى لتبرد في كفّي، أضعها لجبهتي، أسجد عليها لشدة الحر"[٥].

(١) سورة البقرة: ٢١٤.
(٢) الكشاف: (٣٥٦/١).
(٣) المصدر والموضع نفسه.
(٤) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي – عناية القاضي - : (٣٠٠/٢).
(٥) سنن أبي داود: كتاب الصلاة – رقم ٣٩٩. والسنن الكبرى للبيهقي: جماع أبواب صفة الصلاة – رقم٢٦٥٨.

قال الطيبي رحمه الله: "قوله (فآخذ) أي: فأخذت، فجاء بالمضارع لحكاية الحال الماضية، كقوله تعالى: (وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ)[١]..." ا هـ[٢].

فمن الواضح أن أصل التعبير أن يعطف على قوله "كنت" بالفعل الماضي، فيقال: "فأخذت"، لكنه عدل عنه إلى المضارع "فآخذ" حكاية للحال الماضية واستحضاراً لصورة أخذ قبضة من الحصى الذي لفحته شدة الحرارة في قيظ الظهيرة؛ ابتغاء تخفيف حرارتها في كف سيدنا جابر رضي الله عنه حتى يستطيع أن يضع جبهته للسجود على تلك الحصباء من غير أن يتأذى وجهه المبارك رضي الله عنه من لفح حرها الشديد، وكما أدَّى التعبير بالمضارع "فآخذ" هذا الاستحضار لفعل سيدنا جابر وتصويره للسامع وكأنه يشاهده بين يديه؛ كذلك أدَّت الوظيفة نفسها الأفعال المضارعة التي أتت بعد في سياق حديثه عن صلاته خلف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومجاهدته المكاره في امتثاله لأمر الله ورسوله، وذلك قوله "لتبرد.. أضعها لجبهتي، أسجد عليها..". والله أعلم.

٩ – ومن ذلك أيضاً ما روي عن عبد الله بن عمرو – رضى الله عنهما – قال: "كان رسول الله ﷺ إذا أصاب غنيمة أمر بلالاً فنادى في الناس، فيجيئون بغنائمهم، فيخمسه ويقسمه، فجاء رجل يوماً بعد ذلك بزمامٍ من شعرٍ، فقال: يا رسول الله هذا فيما كنّا أصبناه من الغنيمة. قال: "أسمعت بلالا نادى ثلاثاً؟". قال: نعم. قال: "فما منعك أن تجيء به؟" فاعتذر. قال: "كن أنت تجيء به يوم القيامة، فلن أقبله عنك"[٣].

قال الطيبي: "قوله "فيجيئون" حكاية حال ماضية استحضاراً لتلك الحالة، وهي امتثالهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمرهم بإحضار الغنائم لم يمكثوا ولم يلبثوا. ولمَّا مكث الرجل وتخلف عنهم عاد إلى مقتضى الظاهر، وقال: "فجاء

(١) سورة الكهف: ١٨.
(٢) الكاشف: (١٠٧٩/٣).
(٣) سنن أبي داود: كتاب الجهاد – حديث ٢٧١٢. والسنن الكبرى للبيهقي: حديث رقم ١٢٧١٩.

رجل يوماً بعد ذلك"."[1]. ا.هـ.

فالمتأمل لسياق الجمل الخبرية في صدر الحديث الشريف يلاحظ الأفعال الماضية "كان.. أصاب.. أمر.. نادى"، ثم يتحول التعبير إلى المضارع في الأفعال "فيجيئون.. فيخمسه، ويقسمه". وقد بيَّن الشارح رحمه الله السر في العدول إلى التعبير بالمضارع هنا بأنه لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الحالة من امتثال الصحابة رضوان الله عليهم لأمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم "فيجيئون بغنائمهم"، ثم لما يكون منه عليه الصلاة والسلام تجاه ذلك "فيخمسه ويقسمه"، وإحضاراً لتلك الصورة النبيلة الرائعة في أذهان السامعين حتى لكأنهم يشاهدون ما وقع من المجيء بالغنائم ومن قيام القائد الأعلى ﷺ على تقسيمها وإعطاء كل ذي حق فيها حقه. ثم بيَّن الشارح أن العودة إلى مقتضى الظاهر بالتعبير بالماضي في قوله "فجاء رجل يوماً" هي ما تتمة المطابقة لمقتضى المقام التي وقعت بالخروج عن مقتضى الظاهر في التعبير بالمضارع حين استدعى المقام استحضار صورة المجيء بالغنائم وتقسيمها، فلما انتهى الخبر إلى قصة ذلك الذي تخلف عن امتثال الأمر إبان صدوره من حضرة المعصوم ﷺ ، فتقاعس عن أن يكون مع أولئك الذين سعدوا بالمبادرة إلى الطاعة والاستجابة، كان من المناسب الإخبار عنه بالفعل الماضي من غير حكاية لحاله التي لم تحظ بالقبول ولا بالتوفيق، والله أعلم.

١٠- ومما جاء في الكتاب الذي كُتب في صلح الحديبية ما روي عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: " اعتمر رَسول الله ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يدخل – يعنى من العام المقبل – يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسول الله. قالوا: لا نقرُّ بها، فلو نعلم أنك رسول الله ما منعناك، ولكن أنت محمد بن عبد الله. فقال ﷺ :

(١) الكاشف: (٩/٢٧٧٠).

"أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله..." الحديث[١].

قال الطيبي: "قوله "فلو نعلم" فإن قلت: "لو" تقتضي أن يليها الماضي، فما فائدة العدول إلى المضارع؟ قلت: ليدل على الاستمرار، أي استمرار عدم علمنا برسالتك في سائر الأزمنة، بل الماضي والمضارع كقوله تعالى: (لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ)[٢]، وقولك: لو تحسن إلي لشكرت"[٣]. ا هـ.

وجلي أن التركيب الذي وضع فيه المضارع هنا موضع الماضي قد اكتسى دلالة خاصة لتقييده بـ"لو" التي تدل على امتناع وقوع الفعل الوارد في جوابها لامتناع ثبوت شرطها، وعليه فمدلول قولهم "لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك" أنهم منعوه ﷺ من دخول مكة – في ذلك الوقت الذي كان فيه على الشرك والكفر بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم – لأنه لم يثبت علمهم بأنه رسول الله. وقد أفاد الشارح هنا من كلام السكاكي في المسألة ومن استشهاده بالآية الكريمة المذكورة، حيث يقول: "وأما كلمة (لو) فحين كانت لتعليق ما امتنع بامتناع غيره على سبيل القطع كما تقول: لو جئتني لأكرمتك، معلقاً لامتناع إكرامك بما امتنع من مجيء مخاطبك؛ امتنعت جملتاها عن الثبوت، ولزم أن تكونا فعليتين والفعل ماضٍ.... واستلزم في مثل قولك: "لو تحسن إليَّ لشكرت"؛ القصد بـ"تحسن" إلى تصوير أن إحسانه مستمر الامتناع فيما مضى وقتاً فوقتاً، على نحو قصد الاستمرار حالاً فحالاً بـ(يستهزئ) في قوله عزّ اسمه (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)[٤] بعد قوله (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)[٥] وبـ(يكسبون) في قوله (فَوَيْلٌ لَهُم

(١) صحيح البخاري: كتاب الصلح – رقم ٢٦٩٩. وكتاب المغازي – برقم ٤٢٥١. وصحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير – رقم ١٧٨٣.
(٢) سورة الحجرات: ٧.
(٣) الكاشف: (٢٧٩١/٩).
(٤) سورة البقرة: ١٥.
(٥) سورة البقرة: ١٤.

مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)[1]. وقوله (لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ)[2] واردٌ على هذا، أي: يمنع عليه السلام عنتكم باستمرار امتناعه عن طاعتكم"[3]. ا هـ.

فالحاصل مما قرره رحمه الله أن دخول "لو" على المضارع – وكانت تقتضي الدخول على الماضي – إنما يعدل إليه ليفيد استمرار امتناع حدوث الفعل، وعليه فالعبارة الواردة في النص حكاية عن بعض كفار مكة: "لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك" تفيد أنهم منعوه عليه الصلاة والسلام من دخول مكة لاستمرار امتناع إيمانهم؛ بمعنى استمرار تكذيبهم وكفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاً فوقتاً فيما قبل تلك المعاهدة حتى وقت إبرامها، وهو ما يلزم من استمرار عدم علمهم برسالته صلى الله عليه وسلم في سائر الأزمنة – على حد قول الشارح – والله أعلم.

وضع المضارع موضع الاسم المشتق :

ومما روي عن أبي هريرة ﷺ عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "قَرصتْ نملة نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأُحرقتْ، فأوحى الله تعالى إليه: أن قَرصتْك نملةٌ أحرقتَ أمةً من الأمم تسبِّح"[4].

قال الطيبي رحمه الله: "قوله "قَرصت" القَرص: الأخذ بأطراف الأصابع، وهنا يراد به العض. وقوله "أن قرصتك" الجملة هي الموحى بها، أي: أوحى الله تعالى بهذا الكلام، يعني: لأَنْ قَرصتْك نملةٌ أحرقتَ أُمةً مسبِّحةً لله تعالى. وإنما وضع المضارع

(١) سورة البقرة: ٧٩.
(٢) سورة الحجرات: ٧.
(٣) المفتاح: ٣٥٤.
(٤) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الجهاد والسير – رقم ٣٠١٩. وهو في شرح السنة للبغوي: رقم ٣٢٦٨.

موضع "المسبحة" ليدل على الاستمرار ومزيد الإنكار، كقوله تعالى: (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ)(١)، الكشاف: فيه الدلالة على حدوث تسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال، وكأن السامع يحاضر تلك الحال ويسمعها"(٢).ا هـ.

ويتضح من التقدير الذي ذكره الإمام هنا لمعنى الجملة الواردة في الحديث أن مقتضى الظاهر أن يعبر باسم الفاعل "مسبحة" في وصف "أمة من الأمم" لكنه عدل عنه لنكتة تقتضيها بلاغة التعبير في مثل هذا المقام، فعبَّر بالمضارع "تسبح" ليدَل على حصول التسبيح من تلك الأمة حالاً بعد حال، ووقتاً متصلاً بوقت، مما يدل على استمرار تسبيحها، وفي ذلك – كما قال – مزيدُ الإنكار على إحراقها وهي على هذه الصفة التي يعلمها الله عز وجل وهو مطّلع عليها، كما قال سبحانه: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)(٣).

وعليه فوضع المضارع في عبارة الحديث الشريف موضع الاسم هو الملائم لحال الإنكار على إحراقها، مع ما في التركيب من صيغة الاستفهام الإنكاري المقدر، لأنه بمعنى "ألأَن قرصتْك نملةٌ أحرقت؟" ومدلوله: ما كان ينبغي لك إحراقها وهي على هذه الحال من التسبيح المستمر لله جلَّ شأنه، وقد أدَّى التعبير بالمضارع أيضاً إحضار تلك الصورة للسامع وكأنه يراها تتابع تسبيحها بين يديه.

وقد استدل الشارح رحمه الله بآية سورة (ص) وما جاء في الكشاف عن بلاغة التعبير فيها بـ(يسبِّحن)، وقد أكَّد صاحب الكشاف النكتة المذكورة هنا بما بيَّنه عقبها من الفرق بين التعبير بالمضارع في قوله تعالى (الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ)(٤)، والتعبير

(١) سورة ص: ١٨.
(٢) الكاشف: (٢٨٢٥/٩).
(٣) سورة النور: ٤١.
(٤) سورة ص: ١٨.

بالاسم في الآية التي تليها: (وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً)[١] قال عقب قوله "وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح": "ومثله قول الأعشى: * إلى ضوء نارٍ في يفاع تحرق *

ولو قال "محرقة" لم يكن شيئاً، وقوله (محشورة) في مقابلة (يسبِّحن) إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء جيء به اسماً لا فعلاً، وذلك أنه لو قيل "وسخرن الطير يحشرن" على أن الحشرَ يوجد من حاشرها شيئاً بعد شيء، والحاشر هو الله عز وجل؛ لكان خلْفاً، لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: "كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسبحت فذلك حشرها"..."[٢]. ا هـ.

فقد بيَّن رحمه الله بهذا الفرق بين التعبيرين ما يكون في التعبير بالمضارع من ملاحظة استمرار حدوث الفعل شيئاً بعد شيء، وهو ما لا يلاحظ في التعبير بالاسم المشتق، ولذا كان الأول هو المناسب لجو الحديث الذي نحن بصدده دون الثاني، ومن ثم وضع موضعه، والله أعلم.

(١) سورة ص: ١٩.
(٢) الكشاف: (٣٦٤/٣ ، ٣٦٥).

سادساً : التغليب

من أساليب العرب إطلاقهم اسم أحد الشيئين و"الأبوين" للأب والأم، و"العشاءين" للمغرب والعشاء. ويسمى ذلك تغليباً؛ لأنه يغلب فيه أحد الأمرين بإطلاق اسمه عليهما جميعاً. وليس التغليب قاصراً على هذه الصورة، بل له صور أخرى، كتغليب ضمير العقلاء على غيرهم ، وكتغليب ضمير المخاطبين على الغائبين، وتغليب الوصف الذي للعقلاء على غيرهم... إلى آخر ما يتسع له هذا الضرب من الأساليب. وهو ما دفع كلاً من الإمامين السكاكي والخطيب رحمهما الله إلى القول بأن "التغليب باب واسع يجري في فنون كثيرة"(١). وتبعهما على ذلك شراح التلخيص(٢).

ولما كان مقتضى الظاهر أن يسمى كل شيء باسمه، أو يوصف بالوصف الخاص به، أو يعبر عنه بالضمير المناسب له؛ فقد اعتبرت مخالفة ذلك في هذا الفن من إجراء الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وإن لم يصرح بذلك كل من الإمامين السكاكي والخطيب في معرض حديثهما عن الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وإنما جاء حديثهما عن التغليب في ضمن المسائل المتعلقة بتقييد الفعل. وهذا الفن لا يخلو من نكتة بلاغية سواء فيما ذكره البلاغيون من شواهده أو في غيرها من الكلام الفصيح.

وقد عدَّه الإمام الطيبي في كتابه التبيان من المحسنات البديعية، فذكره ضمن المحسنات المعنوية، وعرَّفه بقوله: "هو ترجيح أحد المعلومين على الآخر وإطلاق لفظه عليهما"(٣).

وعرَّفه غيره بأنه "إعطاء أحد المتصاحبين أو المتشابهين حكم الآخر بأن يجعل الآخر موافقاً له في الهيئة أو المادة"(٤).

---

(١) المفتاح: (٣٤٨)، والإيضاح: (١٢٠/٢).
(٢) شروح التلخيص: (٥١/٢).
(٣) التبيان في البيان: (٤٢٨).
(٤) حاشية شيخنا أ.د. محمد عبد المنعم خفاجي رحمه الله على الإيضاح: (١٢٠/٢).

وقال الإمام ابن هشام: "إنهم يغلّبون على الشيء ما لغيره لتناسب بينهما واختلاط"[١]. ا هـ.

واعتبره السعد التفتازاني من قبيل المجاز، فقال وهو يشير إلى قوله تعالى في حق السيدة مريم عليها السلام: (وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ)[٢]: "وجميع باب التغليب من المجاز، لأن اللفظ لم يستعمل فيما وضع له، ألا ترى أن "القانتين" موضوع للذكور الموصوفين بهذا الوصف، فإطلاقه على الذكور والإناث إطلاق على غير ما وضع له، وقس على هذا جميع الأمثلة"[٣]. ا هـ.

ووقف البلاغيون على ما جاء من هذا الأسلوب في آيات الكتاب العزيز، ونوَّهوا بشأنه، وفي مقدمتهم العلاّمة جار الله الزمخشري، ومن نماذج ذلك قوله تعالى: (قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ، قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا)[٤].

قال في الكشاف: "لما قالوا: (لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ) فعطفوا على ضمير الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا (لَتَعُودُنَّ) فغلّبوا الجماعة على الواحد، فجعلوهم عائدين جميعاً إجراء للكلام على حكم التغليب، وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال: (إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا) وهو يريد عود قومه، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئاً من ذلك إجراءً لكلامه على حكم التغليب"[٥]. ا هـ.

والذي نفهمه من قوله "إجراء لكلامه على حكم التغليب" أنه كان ما يقتضيه

(١) مغني اللبيب بحاشية الدسوقي: (٥٣٤/٣).
(٢) سورة التحريم: ١٢.
(٣) المطول: ١٥٩.
(٤) سورة الأعراف: ٨٨ ، ٨٩.
(٥) الكشاف: (٩٦/٢).

الظاهر أن لا ينظم نفسه – عليه السلام – في جملة الكافرين من قومه لأنه لم يسبق من نبي من أنبياء الله عليهم السلام كفر بالله قط. وحكم التغليب الذي أجرى عليه الكلام ههنا إنما هو ضرب من هذا الأسلوب، وهو بعبارة السعد التفتازاني: "تغليب الأكثر على الأقل من جنس بأن ينسب إلى الجميع وصف مختص بالأكثر"(١).

ومنه ضرب آخر ذكروه في قوله تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)(٢) قال الزمخشري: "(إلا إبليس) استثناء متصل لأنه كان جنياً واحداً بين أظهر الألوف من الملائمة مغموراً بهم فغلّبوا عليه في قوله (فسجدوا)، ثم استثنى منهم استثناء واحد منهم"(٣). ا هـ.

وهذا الضرب سماه السعد: "تغليب الجنس الكثير الأفراد على فردٍ من غير هذا الجنس مغمورٍ فيما بينهم، بأن يطلق اسم ذلك الجنس على الجميع"(٤).

وضرب آخر يغلّب فيه الخطاب على الغيبة ذكروه في قوله تعالى: (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)(٥) . قال جار الله: "فإن قلت: (تجهلون) صفة لقوم،، والموصوف لفظ الغائب، فهلاّ طابقت الصفة الموصوف فقريء بالياء دون التاء؟ وكذلك (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ)(٦) ؟ قلت: اجتمعت الغيبة والمخاطبة، فغلبت المخاطبة لأنها أقوى وأرسخ أصلاً أصلاً من الغيبة"(٧). ا هـ.

ومما اجتمع فيه تغليب الخطاب على الغيبة وتغليب العقلاء على غيرهم قوله تعالى: (جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ)(٨) قال جار الله:

(١) المطول: ١٥٩.
(٢) سورة البقرة: ٣٤.
(٣) الكشاف: (٢٧٣/١).
(٤) المطول: ١٥٩.
(٥) سورة النمل: ٥٥.
(٦) سورة النمل: ٤٧.
(٧) الكشاف: (١٥٣/٣).
(٨) سورة الشورى: ١١.

الله: "(يذرؤكم) يكثركم... (فيه) في هذا التدبير، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل،، والضمير في (يذرؤكم) يرجع إلى المخاطبين والأنعام مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغُيَّب مما لا يعقل، وهي من الأحكام ذات العلتين... جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير.." [١]. ا هـ. وتبعه على ذلك صاحب المفتاح وغيره[٢]، لكن شرف الدين الطيبي اعتبر في هذه الآية تغليباً واحداً لا تغليبين كما يقتضيه كلام الزمخشري والسكاكي، فقال في "التبيان": (يذرؤكم) حكم شامل للعقلاء المخاطبين والأنعام، غُلّب فيه المخاطبون العقلاء على الغيَّب مما لا يعقل، هذا هو المقتضى لا كما في المفتاح"[٣]. ا هـ.

وضرب آخر عدَّه الإمام الطيبي من التغليب: وهو أن يعطَى غير العاقل حكم العاقل لأنه وصف بما هو من أوصاف العقلاء، كقوله تعالى: (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشَّمْسَ والْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)[٤].

لكن صاحب الكشاف لم يصرح بأن في الآية تغليباً، حيث قال: "فإن قلت: فلم أُجريت مجرى العقلاء في (رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)؟ قلت: لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود أجرى عليها حكمهم كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه فيعطَى حكماً من أحكامه إظهاراً لأثر الملابسة والمقاربة"[٥]. ا هـ.

قال الإمام الطيبي ضمن حديثه عن التغليب: "وقد ينزلون غير العقلاء منزلتهم إذا وصفوه بما هو مختص بهم، قال الله تعالى: (والشَّمْسَ والْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)[٦]..."[١].

---

(١) الكشاف: (٤٦٢/٣) باختصار يسير.
(٢) المفتاح: ٣٤٩. والمطول: ١٦١.
(٣) التبيان في البيان: ٤٢٨ ، ٤٢٩.
(٤) سورة يوسف: ٤.
(٥) الكشاف: (٣٠٢/٢ ، ٣٠٣).
(٦) سورة يوسف: ٤.

ومما ألحقه الطيبي بقولهم "القمران" و"العمران" إجراء حكم على المثنى الذي وقع فيه التغليب والحكم في الأصل لواحد منهما، حيث قال: "ومنه قولهم: عمران، وقمران، وقريب منه قوله تعالى: (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)[٢] فإنهما يخرجان ممن البحر الملح دون العذب"[٣]. ا هـ.

فحمله على ذلك لأن الضمير في (منهما) عائد على "البحرين" في قوله تعالى قبله: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ)[٤].

وإذ قد وقفنا في هذه الجولة العاجلة على أبرز الصور التي يأتي عليها هذا الأسلوب في الكلام الفصيح؛ فهذا أوان الشروع في محل بحثنا، فسنقف بعون الله تعالى على فقرات من شرح الإمام الطيبي رحمه الله؛ اعتنى فيها ببيان التغليب الذي وقع في نصوص من السنَّة المشرفة:

١ – من ذلك ما روي عن أبي أمامة الباهلي قال: "ذُكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ : "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم". ثم قال رسول الله ﷺ : "إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلُّون على معلّم الناس الخير"[٥].

قال الإمام الطيبي في شرحه: ".. وأما عطف (أهل السماوات) على (الملائكة) فتخصيص للملائكة بحملة العرش وسكان أمكنة خارجة من السماوات والأرض من الملائكة المقربين كما ثبت في النصوص. وفي (يصلُّون) تغليب للعقلاء على غيرهم واشتراك، فإن الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن الغير الدعاء

(١) التبيان في البيان: ٤٢٩.
(٢) سورة الرحمن: ٢٣.
(٣) التبيان: ٤٢٩.
(٤) سورة الرحمن: ٢١.
(٥) رواه الترمذي في سننه: أبواب العلم – رقم ٢٦٨٥. وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله – رقم١٨٣.

وطلب الخير. وذكر النملة وتخصيصها مشعر بأن صلاتها لحصول البركة النازلة من السماء، فإن دأب النملة القنية وادخار القوت في جحرها، ثم التدرج منها إلى الحيتان وإعادة كلمة الغاية للترقي.. والله أعلم"[1]. ا هـ.

فالتغليب الذي أشار إليه في (يصلُّون) بالنظر إلى التعبير عن كل الأصناف المذكورة في هذا البيان النبوي بضمير العقلاء وهو واو الجماعة في (يصلون) ومعلوم أن بعض تلك الأصناف لا تعد من قبيل العقلاء كالحشرات والحيوانات المختلفة التي تقطن الأرض، وكالطيور التي تطير في السماء، والأسماك في البحار ونحوها. وكان مقتضى الظاهر أن يعبَّر عن كل صنف بالضمير المناسب له، لكن ذلك يخالف طريقة البلغاء التي تعمد إلى الإيجاز في أداء معانيهم مع استيفاء ألفاظهم لمقاصدهم، ومطابقة كلامهم لمقتضى الحال، ومن ثم جنح البيان النبوي هنا لأسلوب التغليب الذي هو حري بتضمنه لتلك الأمور التي تتفق لطرائق البلغاء في كلامهم، ومعلوم أن أصنافاً من العقلاء أيضاً يشتركون في هذه الصلاة على معلّم الناس الخير، من حيث كانت الصلاة المذكورة بعضها استغفار وبعضها دعاء كما بيَّنه الشارح رحمه الله، فإن منهم ملائكة لله تعالى بنص الحديث الشريف، وعليه فقد اشترك في تلك الصلاة أصناف من العقلاء وغيرهم، لكن غُلّب العقلاء على غيرهم لكونهم أشرف مما سواهم حيث كرَّمهم الله عز وجل، وأيضاً لأن الأصل أن تكون الصلاة من أولى العقول، وهي الأَولى بهم والأجدر بشأنهم لما حباهم الله به من نعمة التعقل والإدراك والتمييز، فإذا قام بالصلاة تلك المخلوقات التي لا تعد من أولي العقول فإنما هي في تلك الحالة تقوم بوظيفة أولي العقول وتتصف بصفة من صفاتهم، ومن ثَمَّ كانت المطابقة لمقتضى الحال تستدعي تغليب العقلاء على غيرهم، وقد أشار الشارح إلى نكتة أخرى في التدرج إلى النملة ثم الترقي إلى الحوت، وكل ذلك يتعاضد ويتلاءم مع مقام

(١) الكاشف: (٢/٦٧٥، ٦٧٦).

تشريف أهل العلم ويقوي بعضه بعضاً في أداء الغرض المقصود من الدلالة على عظم منزلة العالم الذي يعلم الناس الخير وشرف قدره عند ربه تبارك وتعالى حيث كانت كل تلك الأمم من الخلائق تشترك في الاستغفار له والدعاء، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

٢ – ومنه ما وري عن أبي سعيد الخدري رضِي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردُّون بني ثلاثين في الجنة، لا يزيدون عليها أبداً، وكذلك أهل النار"(١).

قال الطيبي رحمه الله: ".. قوله (من صغير أو كبير يردُّون) فيه تغليب لأن الردَّ إنما يتصوَّر في الكهول والمشايخ دون الصغير"(٢). ا هـ.

فقد بيَّن أن التغليب وقع في قوله ﷺ (يردُّون)، والضمير فيه عائد على من مات (من صغير أو كبير) باعتبار أن الاسم الموصول "من" للجمع فيشمل كل من مات من الصغار والكبار، فلو جرى الكلام على مقتضى الظاهر لكان الردُّ إنما يتعلق بمن تجاوز مرحلة الشباب إلى مرحلة الكهولة أو الشيخوخة أو الهرم، لأن هؤلاء الذين يتصوَّر فيهم أن يرجعوا إلى سن الثلاثين، وأما الصغير فلا يتصوَّر فيه ذلك لأنه لم يبلغ هذه السن أصلاً.

فغُلّب الكبار على الصغار لأنهم الأكثر، فإن أكثر من يموتون في العادة والواقع هم منَ الكبار، وهذا الضرب من التغليب هو الذي سمَّاه السعد التفتازاني: "تغليب الأكثر على الأقل من جنس بأن ينسب إلى الجميع وصف مختص بالأكثر"(٣).

والتغليب هنا مع تمكينه لفائدة الإيجاز في الكلام فإنه في هذا المقام خاصة يدل على إظهار ما في هذا الفعل (يردُّون بني ثلاثين) من طلاقة القدرة الإلهية، لأنه

(١) رواه الترمذي في سننه: أبواب الجنة – رقم ٢٥٦٢. والبغوي في شرح السنة: رقم ٤٣٨١.
(٢) الكاشف: (٣٥٧١/١١).
(٣) المطول: (١٥٩).

يصور ما وقع للأعم الأغلب من أهل الجنة، بل ما شمل حتى أهل النار كما جاء في النص الشريف، ولا ريب أن هذا التعميم في جانب أهل الجنة فيه البشرى لهم بإنعام الله عليهم؛ حيث يعيدهم برحمته إلى كمال قوتهم وصحة أبدانهم وعافيتهم، فلا يبقى بينهم هناك سقيم ولا مسنٌّ ولا ضعيف. والله أعلم.

٣ – وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه ذكر فيه قصة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وزوجه السيدة سارة مع جبَّار من الجبابرة، روي في آخره: ".. فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده مهيم؟ قالت: ردَّ الله كيد الكافر في نحره، وأخدم هاجر". قال أبو هريرة رضي الله عنه: "تلك أُمُّكم يا بني ماء السماء!!"(١).

قال الطيبي: "قوله "أمُّكم يا بني ماء السماء" قيل أراد بهم العرب، سمُّوا بذلك لأنهم يبتغون المطر ويتعيَّشون به، والعرب وإن لم يكونوا بأجمعهم من بطن هاجر، لكن غلّب أولاد إسماعيل على غيرهم. وقيل: أراد بهم الأنصار لأنهم أولاد عامر بن حارثة الأزدي جد النعمان ابن المنذر، وهو كان ملقباً بماء السماء لأنه كان يستمطر به، ويحتمل أنه أراد بهم بني إسماعيل، وسمَّاهم بذلك لطهارة نسبهم وشرف أصولهم"(٢). ا هـ.

والواقع أن العبارة المروية في التعقيب على القصة عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه هي عبارة جليلة لها وقع بالغ الأثر في نفوس السامعين: "تلك أمكم يا بني ماء السماء". إنها السيدة هاجر أم سيدنا إسماعيل عليه السلام الجد الأعلى لقريش ثم لسيد الخلق أجمعين صلى الله عليه وسلم، فلا عجب أن تأتي الإشارة إليها ولمن

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء – رقم ٣٣٥٨. ورواه النسائي في السنن الكبرى: كتاب المناقب – رقم ٨٣١٧.
و"مهيم": كلمة يمانية يستفهم بها، ومعناها: ما حالك؟ وما شأنك؟ جُعِلت مفسرة للإيماء،، أي: أومأ بيده إيماءً يفهم منه معناها. قاله الطيبي (الكاشف: ٣٦٠٦/١١).
(٢) الكاشف عنن حقائق السنن: (٣٦٠٦/١١).

تناسل من ولدها على هذا النحو من التفخيم والتعظيم والتشريف، وأن نسمع صدى ذلك من ألفاظ هذا التركيب من قوله "تلك أمكم" بالإشارة المعظمة التي نزل فيها علو المنزلة وشرفها منزلة بعد المكان فاستعملت الإشارة التي للبعيد، وقوله "يا بني ماء السماء" بيَّن الشارح أن المراد بهم العرب على أحد أوجه ثلاثة، ولما لم يكن العرب جميعاً من نسل سيدنا إسماعيل عليه السلام؛ كان خطابهم على هذا الوجه بقوله "أمكم" مما هو على خلاف مقتضى الظاهر، إذ كان إنما يصدق هذا الوصف في الواقع على من كان من ولد إسماعيل عليه السلام، ولكن أجرى الكلام على تغليب ولد إسماعيل على غيرهم من العرب بتوجيه الخطاب على النحو المذكور، والنكتة فيه الدلالة على شرف أصول ولد إسماعيل وطهارة أنسابهم – كما بيَّن الشارح – وأنهم لعلو منزلتهم ورفعة شأنهم جديرون إذا ذكروا أن يكتفى بذكرهم من بين العرب وأن يغلَّبوا على من سواهم، وذلك لأن التغليب قد يقع بالأشرف على من هو دونه. والله أعلم.

سابعاً : القلب

جاء حديث السكاكي عن هذا النوع من أساليب الكلام على خلاف مقتضى الظاهر عرضاً، وذلك عقب حديثه عن تنكير المسند والحالة المقتضية له، ثم عن كون المسند إليه نكرة والمسند معرفة، فساق من شواهده قول الشاعر:

قفي قبل التفرق يا ضباعا ∴ ولا يك موقف منك الوداعا

وقول الآخر :

كأنّ سبيئةً من بيت رأسٍ ∴ يكون مزاجها عسل وماء

فذكر أن أصل الاستعمال فيهما: ولا يك موقفاً منك الوداع. ويكون مزاجها عسلاً وماء. ثم قال: "وإن هذا النمط مسمى فيما بيننا بالقلب، وهي شعبة من الإخراج لا على مقتضى الظاهر، ولها شيوع في التراكيب، وهي مما يورث الكلام ملاحةً، ولا يشجِع عليها إلا كمال البلاغة، تأتي في الكلام وفي الأشعارِ وفي التنزيل. يقولون: عرضت الناقة على الحوض، وقال القطامي: * كما طيَّنت بالفدن السياعا *

أراد: كما طيَّنت الفدن بالسياع.." [1]. ا هـ.

ويفهم من عبارته هنا التي يقدّم بها هذا الأسلوب ويثنى عليه أنه يرى – رحمه الله – أنه مستحسن مطلقاً، لأنه يورث الكلام ملاحةً ولأنه شائع في تراكيب البلغاء.

أما الخطيب القزويني فإنه لما ذكر هذا النوع ضمن الأساليب التي يخرج بها المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر؛ وضع قيداً لقبوله واستحسانه أو اشترط لذلك شرطاً، ولم يعتبره على كل صوره التي يرد عليها في الكلام مقبولاً بل ذكر أن قوماً من البلاغيين ردُّوه، وعلّة رده تبدو من طريقة تركيبه، لأنها قد تتضمن ما يوهم خلاف

(١) مفتاح العلوم: (٣١١ ، ٣١٢).

المراد ويؤدي إلى عكس المقصود. قال رحمه الله: "ومنه القلب كقول العرب: عرضت الناقة على الحوض. وردَّه مطلقاً قوم، وقبِله مطلقاً قوم منهم السكاكي، والحق أنه إن تضمَّن اعتباراً لطيفاً قُبِل، والاردَّ"(١).

ومثَّل للنوع الذي يتضمن اعتباراً لطيفاً بقول الشاعر:

ومهمه مغبَّرة أَرجاؤه ∴ كأنَّ لون أرضه سماؤه

قال: "أي كأنَّ لون سمائه لغبرتها لون أرضه، فعكس التشبيه للمبالغة، ومثَّل للنوع المردود لأنه لم يتضمن اعتباراً لطيفاً بالأبيات التي سبق استشهاد الإمام السكاكي بها في كلامه المذكور آنفاً، وبقول عروة بن الورد:

فديت بنفسه نفسي ومالي ∴ وما آلوك إلا ما أُطيق"(٢).

يعني: فديت نفسه بنفسي ومالي.

وقد علَّل السعد التفتازاني لقول الخطيب إ نه إن لم يتضمن اعتباراً لطيفاً ردَّ، فقال: "لأن العدول عن مقتضى الظاهر من غير نكتة تقتضيه خروج عن تطبيق الكلام لمقتضى الحال..."(٣).

وقد حمل السكاكي بعض آيات الكتاب العزيز على هذا الفن، فقال في قوله تعالى: (وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا)(٤): "أي: جاءها بأسنا فأهلكناها، على أحد الوجهين". وفي قوله تعالى: (اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ)(٥) : "على ما يحمل من :ألقَهَ إليهم فانظر مَاذَا يرجعون ثم تولَّ عنهم". وفي قوله تعالى: (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى)(٦): "يحمل على: تدلَّى فَدَنا"(٧).

وردَّه الخطيب القزويني بأنه "ليس وارداً على القلب إذ ليس في تقدير القلب فيه

(١) الإيضاح: (٢/٩٧ ، ٩٨).
(٢) المصدر والموضع نفسه.
(٣) المطول: (١٣٨ ، ١٣٩) باختصار.
(٤) سورة الأعراف: ٤.
(٥) سورة النمل: ٢٨.
(٦) سورة النجم: ٨.
(٧) المفتاح: (٣١٣).

اعتبار لطيف"[١]. ا هـ.

وجوَّز الإمام الزمخشري في قوله تعالى: (ويوم يعرض الذين كفروا على النَّار)[٢] أن يحمل عليه، فقال: "وعرضهم على النار تعذيبهم بها، من قولهم: عرض بنو فلان على السيف: إذا قتلوا به، ومنه قوله تعالى: (النَّار يعرضون عليها)[٣]، ويجوز أن يراد: عرض النار عليهم، من قولهم "عرضت الناقة على الحوض" يريدون عرض الحوض عليها فقلبوا، ويدل عليه تفسير ابن عباس رضي الله عنه: يجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها"[٤]. ا هـ.

تلك مقتطفات عاجلة لأبرز ما جاء عند البلاغيين من قيمة هذا الأسلوب واستعماله ومواقفهم منه، ويحسن بنا أن ننتقل الآن إلى كتاب الطيبي "الكاشف" لنقف على نصوص من السنة النبوية حمل بعض عباراتها في شرحه على القلب، ونحاول – بعون الله وحوله – أن نستجلي ما فيها من اعتبارات لطيفة:

١ – عن الأزرق بن قيس قال: "صلَّى بنا إمامٌ لنا يكنى أبا رمثة، قال: صلَّيت هذه الصلاة أو مثل هذه الصلاة مع رسول الله ﷺ ، قال: وكان أبو بكر وعمر يقومان في الصفِّ المقدَّم عن يمينه، وكان رجل قد شهد التكبيرة الأولى من الصلاة، فصلَّى نبيُّ الله ﷺ ، ثم سلَّم عن يمينه وعن يساره حتى رأينا بياض خدَّيه، ثم انفتل كانفتال أبي رمثة – يعني نفسه – فقام الرجل الذي أدرك معه التكبيرة الأولى من الصلاة يشفع، فوثب إليه عمر، فأخذ بمنكبيه فهزَّه ثم قال: اجلس فإنه لم يهلك أهل الكتاب إلا أنه لم يكن بين صلاتهم فَصل، فرفع النبي ﷺ بصره، فقال:

(١) الإيضاح: (٢/٩٩).
(٢) سورة الأحقاف: ٢٠ ، ٣٤.
(٣) سورة غافر: ٤٦.
(٤) الكشاف: (٣/٥٢٣).

"أصاب الله بك يا ابن الخطاب"[١].

قال شرف الدين الطيبي: "قوله "كانفتال أبي رمثة" أي: انفتالي، جرَّد عن نفسه "أبا رمثة" ووضعه موضع الضمير مزيداً للبيان، واستحضاراً لتلك الحالة في مشاهدة السامع. قوله "شفع" الشفع: ضم الشيء إلى مثله، يعني: قام الرجل يشفع الصلاة بصلاة أخرى. وأما فائدة ذكر "قد شهد التكبيرة الأولى" فللتنبيه على أنه لم يكن مسبوقاً يقوم للإتمام. ويحتمل أن يراد بعدم الفصل ترك الذكر بعد السلام، والضمير في "فإنه"، و"أنه" للشأن، واللام في الثاني مقدرة. وقوله "أصاب الله بك" من باب القلب، أي: أصبت الرشد فيما فعلت بتوفيق الله سبحانه وتعالى وتسديده. وجاز أن يروى: "أصاب الله رأيك"، والأول هو الرواية في سنن أبي داود وجامع الأصول[٢]. ونظيره قولهم: "عرضت الناقة على الحوض" أي: عرضت الحوض على الناقة. وهو باب واسع في البلاغة"[٣]. ا هـ.

ويتضح من هذا التفصيل الذي تعرَّض فيه الشارح لبيان جمل من النص ودلالتها، وكشف عن فوائد تضمنتها أساليبها؛ أن الرواية التعليمية التي يرويها الصحابي الجليل أبو رمثة رضي الله عنه؛ كان من مقتضيات المقام فيها أن يقع الكلام في بعض المواضع منها على خلاف مقتضى الظاهر، وقد أشار إلى ثلاثة مواضع آخرها أسلوب القلب، وأولها وضع المظهر موضع المضمر في قوله "كانفتال أبي رِمثة"، فلو تكلم على ما يقتضيه الظاهر لقال: كانفتالي – بضمير المتكلم – لكن وضع اسمه الظاهر موضعه أوقع وأبلغ في مقام التعليم الذي يتطلب مزيداً من البيان والتقرير لمَا يلقيه في نفس المتلقي، واستحضار الحالة التعليمية لحركات الصلاة وأفعالها في ذهنه.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: أبواب الركوع والسجود – رقم ٠/٠٠٧ والطبراني في المعجم الأوسط: رقم٢٠٨٨.

(٢) جامع الأصول في أحاديث الرسول المجد الدين بن الأثير: رقم ٤٣٦٨.

(٣) الكاشف عن حقائق السنن: (١٠٦٢/٣ ، ١٠٦٣).

والموضع الثاني: ضمير الشأن فيما رواه عن كلام سيدنا عمر رضي الله عنه: "اجلس فإنه لم يهلك أهل الكتاب.." ومعلوم أن هذا الأسلوب من قبيل وضع المضمر موضع المظهر، وأنه يستعمل غالباً في الأمور ذات الأهمية التي يكون لها خطر وشأن عظيم، كما هو الحال في المعنى الذي ورد فيه ههنا، حيث جاء تقدمة لبيان سبب من أسباب هلاك أهل الكتاب يتعلق بأمر الصلاة التي هي الركن الأعظم من أركان الدين.

والموضع الثالث – الذي هو محل الشاهد ههنا – هو القلب الذي حُمل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أصاب الله بك يا ابن الخطاب"، فبيَّن أَن المراد به: أصبت الرشد فيما فعلت بتوفيق الله. والتعبير به هنا يقع ألطف موقع، لأن فيه إسناد القول والفعل اللذين قام بهما سيدنا عمر لإرشاد ذلك الرجل؛ إسناداً إلى الله عز وجل، وهو مع ما فيه من تعجيل المسرَّة والبشرى؛ فإن فيه تنبيهاً على أن الهداية للحق والرشاد إنما تكون من عند الله وبتوفيقه سبحانه، تحقيقاً لقوله عز وجل: (وما رميتَ إذْ رميتَ ولَكنَّ اللّه رمى)[1]، ولقوله حكاية عن سيدنا شعيب عليه السلام: (إنْ أُرِيدُ إلا الإِصلاحَ ما استطعتُ وما توفيقي إلا باللّه)[2]، وفي إدخال الباء على ضمير الخطاب "بكَ" ثم ندائه باسمه "يا ابن الخَطاب" إظهَار لفضله وتميزه بما حباه الله به من عنايته وهدايته وتوفيقه، وذلك يدل على شرف رتبته وعِظم منزلته رِضي الله عنه، هذا إلى ما في أسلوب القلب هنا من الإيجاز النبوي الذي لا يغني غناءه التعبير الذي يقتضيه الظاهر، ولا يحسن موقعه عند السامع كما يحسن الأول. والله أعلم.

٢ – وفي موضع آخر روِّي عن النعمان بن بشير ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ يُسَوِّي صفوفنا حتى كأنـَّما يسوِي بها القداح، حتى رأى أنـَّا قد عقَلنا عنه، ثمِ خرج يوماً، فقام حتى كاد أن يكبِر، فرأى رجلاً بادياً صدره من الصف، فقال: "عباد الله:

(١) سورة الأنفال: ١٧.
(٢) سورة هود: ٨٨.

لَتْسوُّن صفوفكم أو ليُخالفَنَّ الله بين وجوهكم"(١).

قال الإمام الطيبي: "قوله "كأنما يسوِي بها القداح": القْدح بالكسر: السهم قبل أن يُراش ويركَّب نصله، وجمعه قداح، وضرب المثل به ههنا من أبلغ الأشياء في المعنى، لأن القدح لا يصلح لما يراد منه إلا بعد الانتهاء في الاستواء، وإنما جمع لمكان الصفوف، أي: ليسوِي كلَّ صف على حدته. أقول: روعي في قوله: "يسوِي بها القداح" نكتة، لأن الظاهر أن يقال: كما يسوِيها بالقداح، والباء للآلة، كما في قوله: كتبت بالقلم. فعكس وجعل الصفوف هي التي يسوَّى بها القداح مبالغةً في استوائها. قوله "حتى عقلنا عنه" يعني لم يبرح صفوفنا حتى استوينا استواء أراده منا، وتعقّلنا عنه فعله.." (٢). ا هـ.

فلا حاجة بنا بعد هذا البيان الذي أماط به الشارح اللثام عن سر بلاغة القلب في عبارة الحديث "يسوِي بها القداح"، وبعد أن بيَّن أن القدح لا يؤدي مهمته المنوطة به إلا بعد أن يكون في غاية الاستواء والاستقامة، فالعدول عن مقتضى الظاهر الذي هو: "يسوِيها بالقداح" إلى خلافه كما جاء في النص يفيد المبالغة في استواء الصفوف وإقامتها على أضبط وجه من الاستقامة إلى درجة توهم أن القداح هي التي تسوَّى بالصفوف، ويقام بها أودها حتى تستقيم أعوادها. والله أعلم.

٣ – وفي موضع آخر في حديث روي عن البراء بن عازب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ "زينوا القرآن بأصواتكم"(٣).

قال شرف الدين الطيبي: "قوله (زينوا القرآن بأصواتكم): قيل إنه من المقلوب ويدل عليه أنه روي أيضاً عن البراء عكس ذلك. ونظيره في كلام العرب: "عرضت

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة – رقم ٤٣٦. والطبراني في المعجم الكبير: رقم ١١٥.
(٢) الكاشف: (١١٤٠/٤).
(٣) رواه أبو داود في سننه: أبواب السجود – رقم ١٤٦٨. وابن ماجة في سننه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها – رقم ١٣٤٢.

الناقة على الحوض"، والمعروض هو الحوض على الناقة، وقولهم: "إذا طلعت الشعرى واستوى العود على الحرباء"، فإن الحرباء تسوي على العود. ويجوز أن يجري على ظاهره فيقال: المراد تزيينه بالترتيل والجهرية وتحسين الصوت، فإنه إذا سمع صيتٌ حسن الصوت يقرأ بصوت طيب ولحن حزين يكون أوقع في القلب وأشدَّ تأثيراً وأرقَّ لسامعيه، وسمَّاه تزييناً لأنه تزيين اللفظ والمعنى"[1].

وعلى ما بيَّنه فالتركيب يحتمل أن يكون على القلب، فيكون الأصل دخول الباء على لفظ "القرآن" كما جاء في الرواية الأخرى، ويحتمل أن يكون على مقتضى الظاهر، وقد بيَّن الشارح المعنى على الوجه الثاني، وأما بحمله على خلاف مقتضى الظاهر فإنما سوَّغه بذكر بعض ما سمع عن العرب من هذا الأسلوب، ولكننا عند التأمل نجد أن لاعتباره من قبيل القلب هنا وجهاً، لأن الباء بعد الفعل "زيَّن" تدخل على ما هو سبب في التزيين، كما نقول: زيَّنت البيت بالمصابيح، وزيَّنت الحديقة بالزهور والرياحين، ونحو ذلك، ولما كان القرآن فيه الهداية للقلوب، والشفاء لما في الصدور، فإن المؤمن كما يداوي به قلبه ويتخلَّى من أدرانه بوضع الدواء منه على محل الداء من قلبه؛ فإنه يتحلى بتلاوته ويتزين بتجويد آياته ونشر أريجها بصوته كما جاء في الحديث: "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأُترجَّة ريحها طيب وطعمها طيب"[2] . وعليه فكان مقتضى الظاهر: "زينوا أصواتكم بالقرآن" ولكن لما كان الشيء الذي يراد تزيينه هو المقصود بالذات والمتوجه إليه بالعناية والاهتمام غالباً، وأما مدخول الباء في "زيَّنته بكذا" إنما هو وسيلة التزيين وأداته؛ كان إجراء الكلام على الظاهر يوهم أن المقصود الأصلي هو الأصوات وأنها هي محل العناية وأن القرآن هو الوسيلة إلى تحسينها وتزيينها، وأما على أسلوب القلب فينتفي هذا الوهم، ويكون على العكس من هذا المعنى، لأن قوله صلى الله عليه وسلم: "زينوا القرآن بأصواتكم"

(١) الكاشف: (١٦٨٦/٥ ، ١٦٨٧).
(٢) صحيح البخاري: كتاب الأطعمة – رقم ٥٤٢٧. وسنن الترمذي: أبواب الأمثال: رقم ٢٨٦٥.

يوحى بأن القرآن هو المقصود بالذات، وأنه الأجدر بأن تتوجَّه إليه العناية بشتى السبل والأسباب التي منها الأصوات، لتكون في خدمة كلام الله عز وجل بتحسين تلاوته وترتيله، وهذا أوفق بمقام التفخيم والتعظيم لكتاب الله المجيد، والله أعلم.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيد الكائنات، وعلى آله وصحبه ما طلع فجر وهبت النسمات.

أما بعد فهذه المباحث حول بعض أساليب الكلام على خلاف مقتضى الظاهر طوفنا فيها – بعون الله – حول أبرز ملامحها ونصوص تعد من شواهدها، ونذكر في خاتمتها أبرز النتائج الذي توصلنا إليها :

أولاً : لا مشاحة في الاصطلاح، فإن بعض هذه الأساليب كان القدماء يسمونه باسم غير الذي عرف به عند جمهور البلاغيين المتأخرين لكن خصائص تلك الأساليب الفنية لم تتغير بتغير الأسماء والمصطلحات.

ثانياً : دراسة تلك النماذج العالية من الكلام البليغ تنمي الذائقة البلاغية لدى الدارسين والباحثين، فلابد لهم من أن يدأبوا على البحث فيها، وأن لا يسأموا من مدارستها.

ثالثاً : لا يمكن قطع الأسلوب البلاغي عن جو النص الذي ورد فيه بل لابد للدارس من ملاحظة الوشائج التي تمتد بينه وبين ما يحيط به من معاني الكلام وقرائن الأحوال، حتى يتسنى له معرفة مطابقته لمقتضى المقام. والله من وراء القصد.

وصلى الله وسلم وبارك على سيد الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

المصادر والمراجع

١- إعجاز القرآن: للقاضي أبي بكر الباقلاني – تحقيق السيد/ أحمد صقر – دار المعارف ١٩٧٨م.

٢- الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال: لابن المنير الإسكندري – بهامش تفسير الكشاف – ط مصطفى البابي الحلبي ١٩٧٢م.

٣- الإيضاح: للخطيب القزويني – بتحقيق وتعليق أ. د. محمد عبد المنعم خفاجي – المكتبة الأزهرية للتراث – الطبعة الثالثة ١٩٩٣م.

٤- البديع : لأبي العباس عبد الله بن المعتز العباسي – ط دار الجيل – بيروت١٩٩٠م.

٥- التبيان في البيان: للإمام شرف الدين الطيبي – تحقيق الأستاذ الدكتور/ عبدالستار زموط – دار الجيل – بيروت.

٦- التفسير الكبير: للإمام فخر الدين الرازي – دار الفكر – بيروت.

٧- تلخيص المفتاح: للخطيب القزويني – في صدر كتاب الأطول لعصام الدين بن عربشاه – تحقيق د. عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلمية ٢٠٠١م.

٨- جامع الأصول في أحاديث الرسول: لمجد الدين بن الأثير – تحقيق عبد القادر الأرناؤوط – مطبعة الملاح: بيروت ١٩٧٠م.

٩- جامع بيان العلم وفضله: للحافظ أبي عمر بن عبد البر القرطبي – دار الكتب العلمية ١٩٧٨م.

١٠- حاشية السيد الشريف الجرجاني على المطول – المكتبة الأزهرية للتراث – مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ.

١١- حاشية الشهاب الخفاجي على تفسر البيضاوي (عناية القاضي وكفاية الراضي) – دار صادر: بيروت.

١٢- سنن ابن ماجة – بتحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي – ط عيسى البابي

الحلبي.
١٣- سنن أبي داود – ط مصطفى البابي الحلبي – الطبعة الأولى ١٩٥٢م.
١٤- سنن الترمذي – بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر – ط مصطفى البابي الحلبي ١٩٧٨م.
١٥- السنن الكبرى للبيهقي – تحقيق محمد عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية: بيروت٢٠٠٣م.
١٦- سنن النسائي – تحقيق عبد الفتاح أبو غدة – مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب١٩٨٦م.
١٧- شرح السنة: للإمام أبي محمد البغوي – دار الكتب العلمية: بيروت.
١٨- شروح التلخيص: للتفتازاني، والسبكي، وابن يعقوب المغربي – المطبعة الأميرية ببولاق١٣١٨هـ.
١٩- صحيح البخاري – تحقيق محب الدين الخطيب، وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي – المطبعة السلفية ١٤٠٠هـ.
٢٠- صحيح مسلم بشرح النووي – المطبعة المصرية ومكتبتها ١٩٢٤م.
٢١- الصناعتين: لأبي هلال العسكري – تحقيق د. مفيد قميحة – دار الكتب العلمية١٩٨٩م.
٢٢- الكامل في اللغة والأدب: لأبي العباس المبرد – تحقيق د. محمد أحمد الدالي – مؤسسة الرسالة ٢٠٠٤م.
٢٣- الكاشف عن حقائق السنن (شرح الطيبي على مشكاة المصابيح) للإمام شرف الدين الطيبي – تحقيق د. عبد الحميد هنداوي – ط مكتبة نزار مصطفى الباز٢٠٠٤م.
٢٤- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل: للإمام الزمخشري – ط مصطفى البابي الحلبي ١٩٧٢م.

٢٥- لسان العرب: لابن منظور – تحقيق نخبة من الأساتذة – ط دار المعارف.
٢٦- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لضياء الدين بن الأثير – تحقيق كامل عويضة – دار الكتب العلمية ١٩٩٨م.
٢٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل – تحقيق شعيب الأرناؤوط، وعادل مرشد – ط مؤسسة الرسالة ٢٠٠١م.
٢٨- مسند الإمام الشافعي – رتبه على الأبواب الفقهية محمد عابد السندي – دار الكتب العلمية ١٩٥١م.
٢٩- المطول في شرح تلخيص المفتاح: لسعد الدين التفتازاني – المكتبة الأزهرية للتراث – مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ.
٣٠- المعجم الأوسط للطبراني – تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسيني – دار الحرمين – القاهرة.
٣١- المعجم الكبير للطبراني – تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي – مكتبة ابن تيمية – القاهرة.
٣٢- معرفة السنن والآثار: للبيهقي – تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي – دار الوفاء: المنصورة١٩٩١م.
٣٣- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب للإمام ابن هشام الأنصاري – بحاشية الدسوقي – دار الكتب العلمية ٢٠٠٧م.
٣٤- مفتاح العلوم: للإمام السكاكي – تحقيق د. عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلمية٢٠٠٠م.
٣٥- موطأ الإمام مالك – بتعليق محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء التراث العربي: بيروت١٩٨٥م.
٣٦- نقد الشعر: لقدامة بن جعفر – بتعليق د. محمد عبد الجواد فاضل – مطبعة الجريسي١٩٨٩م.

٣٧- النهاية في غريب الحديث والأثر: لمجد الدين بن الأثير – تحقيق محمود محمد الطناحي، وطاهر أحمد الزاوي – المكتبة الإسلامية – الطبعة الأولى ١٩٦٣م.